عدو غير مرئي

عدو غير مرئي

بومدين بلكبير

يوميات

ISBN 9789778213546

© Willows House 2022

الطبعـة الأولـى: ٢٠٢٢ منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكة، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, rcording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

منشورات ويلـوز هـاوس
WILLOWS HOUSE
المدير العام: قاتا يمبا - مدير النشر: إسلام أحمد
جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

بومدين بلكبير

عَدُوٌّ غَير مَرئيٍّ

يوميات روائي في الحجر

منشورات ويلوز هاوس
WILLOWS HOUSE

إلى عائلتي؛ أبي وأمي (رحمها الله)، إخوتي وأخواتي.

« إنّنا في هذه اللحظات العصيبة من الوحدة والعزلة، بعيدًا عن المشاعر والأصدقاء والمجتمع، أصبحنا أكثر وعيًا بحاجتنا للآخر».

إدغار موران

«إنّ التّكلفة الّنفسية ستكون باهظة الثمن، كما تخلق العزلة أيضًا أشكالًا جديدة من جنون الارتياب تتجلى في العديد من نظريات المؤامرة على شبكات التّواصل الاجتماعي...».

سلافوي جيجك

عن يوميّات مأهولة بالفراغ

«كون الحياة بلا معنى هو مبرّر للحياة، فضْلاً عن أنّه المبرّر الوحيد».

سيوران، اعترافات ولعنات

يطلّ علينا الكاتب والرّوائي الجزائري بومدين بلكبير بعمل جديد ومختلف «عدوّ غير مرئيّ: يوميّات روائيّ في الحجر»، كتابة تقذف بنا داخل مدارات العزلة، لتدوّن بمهارة وحذاقة انطباعات مواطن يحاول تخطّي عبث يومياته في ظلّ تفشّي الوباء. ترغمه تلك التأملات على عبور الهاوية، وتفادي الغرق في وحل التشاؤمية التي تدثّر بها وضعنا الجزائري مؤخّرا. يجول بنا بومدين بلكبير في تضاريس اليومي وتفاصيله البسيطة والكثيفة، ويكشف عن العاهات التي تشلّنا والبؤس الذي ينخرنا حتى النّخاع.

«عدوّ غير مرئيّ» هي يوميّات تكابد ضحالة الواقع ومرارة العيش، كما تستحضر وعي الكاتب ولاوعيه معاً لما يرغب في قوله، حينما يباغته سؤال العدم ويتعذّر الكلام في حضرة اللاّشيء، يتجاوز كل ذلك ليقف عند هاوية الصَّمت واللاّمحدد، مستشعرا فضاء الحقيقة المتمنّعة عن القول، وتحسّس الرغبة التي يسيطر عليها اللاّمعنى والعدم. ينسحب

الكاتب بهدوء إلى جسد الكتابة ليدوّن كيف يلتذّ بتأمّل دائرة الحياة الحلزونية بنعمها وشقائها. في أبسط صُور الممارسات العادية والنشاطات الرّوتينية، كيف ينجو الكاتب –عبر كتابة صفحات يوميّاته- من هذا العبث الذي يغرقنا في المبتذل والتفاهة.

أمام الضّجر الذي يرهق، وركود الزّمن الذي يلفّ الجميع، تتسرّب إلى الذات نشوة سرد تفاصيل فنون العيش اليوميّ في ظل زمن صعب؛ حيث الوباء وكوارث الطبيعة والجرائم وتوحش البشر وتفشّي اليأس. ينسلّ بومدين من هذا الخراب ليواجه قسوة الحياة ومرارات الخيبة، بلغة رشيقة وخفيفة لا تزعجنا بالمصطنع، كما لا تنحاز إلى أحيلة مركّبة أو صور بلاغية مضخّمة، بل تستحوذ عليها لغة يغوينا سهلها الممتنع الذي يتناغم مع إيقاع هذه اليوميات، عدوّ غير مرئيّ هي مساءلة تنفتح باستحقاق على البُعد التراجيدي للحياة، في إشارة إلى السّقوط الفجّ والمتكرّر الذي يصاب به الفرد المعاصر وهو يعيش في عالم مجزّأ، يتربّص به التفكّك وتنهشه الأوبئة وتخيّم عليه أنباء الموت وفظاعتها من كلّ حدب وصوب.

من أوّل وهلة تبدو هذه اليوميات وكأنها لا تروم شيئا، لكن الهوامش السّردية تخلق خريطة لابتكار آخر ناجم عن تكتيك كتابي لاكتشاف المعاني الدّاخلية (الذات) والخارجية (العالم). يوميات بلكبير سرديات هامشية تعرّي الواقع وتكشف تفاصيله بدقّة وحِدّة، وهي سردٌ لا يبالي بخصوصية فنيات تثقل كاهل الكاتب.

يوميات بلكبير مشبعة بأحاديث عن العلاقة مع اللامحدد

واللامحدود، عند عتبة الكلمة حيث ينفجر سيل من الكلمات التي تريد أن تعرّف تراجيديا اليوميّ بحبر طري ينحت ذاته، ويرسم طريقه نورا في العتمة، فاللغة كالضوء تنير عَدَم الكتابة كما قال إدمون جابيس، الكتابة وهج يهب الحيوات للحروف لتحدث ثقبا في العدم. ما يوجد في نصيات بلكبير ينشّط ما هو خبيء ومطموس في صدورنا، يكشف عن البياض الصّباحي، هو تنفّس عميق يحرّر صرخاتنا المكتومة في زمن الكورونا. يكتب ليحرّر الوريقات من قلق السّلب ويحوّلها إلى ترياق لحالات الوجوم والنَّكسة والقنوط، لأنّ الكتابة صيدلية تمارس استراتيجية الانفلات السّلس من قبضة الزّمن وأمراضه المستشرية، فعل الكتابة استشفاء؛ هي سعي الكاتب للقبض على هنيهات خاطفة تشبه «الحدث»، يمارس الكاتب رعب الخطفة؛ أي «خطف اللّحظة»، وسكب ذلك الإحساس على الورق، إنها فرادة فضاء السّرد التي تتخطّى كثافة العزلة وفاجعة الصّمت لتحنو على فجر اللّغة وإيقاعات الوجود الخالصة.

تعلّمنا كتابة اليوميات الإنصات إلى اللاّطمأنينة، إلى التفكير في هدوء اللانهائي المعتم الذي يثير الكثير من البلبلة ويسيل الكثير من الحبر، كتابة اليوميات هي تطلّع إلى ما بعد عتبة السّرد، إلى مواجهة الفراغ والخواء الحتميّ، حيث اللا أحد. ولهذا جاءت لغة بلكبير في يومياته رقيقة تبلغ أقصاها لأنها موعودة بالحفر في مقبرة الوجود عن آثار البقاء وملمح الخلاص، كلام لا يحجم عن الانفصال عن كل شيء لتتورط كتابته في المساس بحنين الأنا إلى الحياد والفقدان.

أمام هذه اليوميات يستوقفك الفراغ الذي يضمر استكانة وجودية. ما يتوارى خلف المقاطع اليومية موضوع مفقود، منسي، يجترّه الكاتب ليحاكي فراغ المكبوت. سرديات تفكّر بألم كما قال بلانشو، وتحاول فتح شرنقة الذّات، اليوميات هي إفراغ نرجسيّ يداعب المخيّلة ويهدهد اللغة ويقاوم القبح الذي يكتسحنا. عدوّ غير مرئي يوميات تمارس التداعيات الحرّة وتناثر الذات المتحدثة، لعبور الفضاءات والأزمنة، مشكّلة خرائط لحالات الكآبة واللاّجدوى وفقدان الإرادة، كتابة تقترن بالعبث والرّفض والتعنّت. كتابة الحياد عند بلكبير توق إلى الطّمأنينة وضدّها، إذ تجتهد لتحقيقها لكنها تخفق في إحلالها في كنف عالم شنيع، هو عالم الخيبات، فيعود الكاتب إلى درجة الصّفر، حيث يفقد الرّوح والحسّ والجسد فيبزغ امتداد الخواء واتّساع الرؤية وإخفاق العبارة.

كثيرا ما ارتبط فعل الكتابة في هذه اليوميات بالمقاومة والاستكانة، كتابة في ظروف حرجة وخاصة تنهك الذات وتقصيها وتجعلها في مدارات القبض والبسط. كتابة بالنقصان كما يسميها بلانشو، بمثابة حركية تعطّل الحياة وتفتح إيقاع الإقبال على الحياة ليتواصل موتها.

إنها تداخلات كثيفة تتماهى فيها الأنا بأشياء العالم الخارجي، في نوع من المزاوجة الشَّبقية بين اللغة والذات المتحدثة، في مزج ترميزي بين صوت الوعي الدّاخلي وامتصاصات الجسد، استجمام كتابي تتمظهر من خلاله آثار خاطفة للفراغ الخلاّق. تمثل هذه اليوميات محطّات لعبثٍ مطلق ليس له موضوع ثابت، فهل هذه الجمالية الاعتباطية والفوضى المفتوحة إثارة

لـما يهـدّد ذواتنـا؟ عـدوّ غـير مـرئي جهـد جمـالي لـمواجهة الهـوّة السـحيقة الـتي تسـحبنا إليهـا كثقـب أسـود يلتهـم كلّ شيء. هـذه التجربـة السّرديـة الجديـدة عبـارة عـن شـذرات حميمـة تحتضـن صـورا مشـحونة بغـير القابـل للتمثيـل، نصيـات تـأوي داخلهـا أحداثـا لا نعـرف مآلات لهـا، فنحـن نقـاوم العبـث فقـط، عـبر اللّغـة والحَـكي نخلـق عالـما خياليـا مـمزوجا بشـتات الواقـع لتسـمية مـا لا موضـوع لـه، لضبـط نقطـة بـلا نهايـة، هكـذا يرتسـم نـصّ بومديـن بلكبـير في فضـاء مأهـول بالفـراغ.
بعيـدا عـن البـذخ البلاغـي والانحـراف اللّفظـي، تشـعّ نصـوص بومديـن بلكبـير كعزلـة لا يسـعها شيء، إلا الإنصـات لليومـيّ، حيـث تتسـكّع سردياتـه في سـكينتها ومكرهـا لتحيـط بمـا هـو عـادي ومعقّـد وكثيـف. لغـة شـفافة تدفعـك أثنـاء القـراءة إلى الاسترسـال معهـا داخـل لعبـة الحيـاة وشـقاء الوجـود، وسـط تأمّـلات ذات منعزلـة تواجـه ذاتهـا بكـدّ وعنـاء. تشـكّل هـذه النّصـوص اسـتردادا للضّائـع واللاَّشيء، طقـوس الكتابـة لديـه عرضـة للكتابـة عمّـا لا محـلّ لـه، عـن «اللاّشيء، الفـراغ، العـدم، اللاّجدوى»، وهـي نصيـات لا تؤمـن إلاّ بتحطيـم ذاتهـا كمـا قـال رولان بارت. وهـذا الـلاشيء الـذي يكتـب عنـه بومديـن بلكبـير ينغمـس بإحساسـاته وتجريداتـه داخـل منطـق الصّمـت والهبـاء واللاّيقـين، درءا لـمكر الأنـا وانقباضـات اللغـة الـتي لا يثـق فيهـا.
عـدوّ غـير مـرئي عبـارة عـن إغمـاءات تهـوي باللغـة أمـام ثقـل الصّمـت الـمبهر، الكتابـة هـي سـعي حثيـث إلى نقطـة الانبجـاس والإنصـات لذّاكـرة الـذات السَّـحيقة، ذلـك الإنصـات الـمرهف الذي يسائل الـمصائر والـمآلات. ينتصر بومدين بلكبير

إلى حميمية الإنسان، معربا عن تلك الرّغبة القصوى للهواء والحياة وفتنة الأزرق، الكتابة لديه انجذاب رغائبي إلى الوجه المحجوب عنّا. تفاصيل يومية متناثرة تحيي المجاري التي جفّت، كلمات مفعمة بالعاديّ الذي يجذبنا ويُدهشنا.
يضيف بلكبير عبر نصّه هذا انتعاشا لفنّ اليوميات، عبر تقديمه نقلة يشع من خلالها العسر واليُسر والفرح والقرح والبؤس والأمل، نصّ يتحرّك فيه كلّ شيء بصمت، أنامل بومدين تمتدّ خلسة كتمدّد الظلّ هناك، على بياض الصفحات والمساحات حيث ثقل العزلة، أين لا يتحرّك أيّ شيء. انتزع بومدين بلكبير بجرأة وفنية قلق اللّحظة، ليبعثها عبر الحرف ويزرعها على البياض المشعّ للعزلة لحجب التعاسة التي حلّت بنا.

مُحمّد بكاي

١

٢٠٢١/٧/٧

من خلف زجاج النّافذة تظهر المدينة من عل، يحوِّطها البحر بحنو ويحرسها الجبل. تبدو نسبة الرّطوبة قد انخفضت قليلًا عمَّا كانت عليه قبل ساعات، مما يظهر من منظر البنايات والأشجار المترامية أمامي على مد البصر. أتردد في الخروج من شقتي؛ الانتعاش ببرودة مكيّف الهواء ومشاهد مقتطعة من برنامج حول عوالم مختلفة من رسائل غسان كنفاني على قناة الجزيرة الوثائقية يغرياني بالبقاء. في الأخير جلست إلى الطّاولة الدائرية البيضاء اللون المثبتة عند زاوية الجدار، وبعد لحظات من متابعة صور متقاطعة بين المشهد من خلف زجاج النافذة على يميني وشاشة البلازما على شمالي، قررت الخروج.

يقطع رنين الموبايل تلك اللحظة، التقط الهاتف من على «المابيل تي في» ثم اسحبه من جهاز الشحن، أنتبه إلى اسم مدير مسرح المدينة يظهر على شاشة الموبايل، أقرب الموبايل إلى أذني واضغط لاستقبال الاتصال؛ بعد مكالمة

حول أمراض الثقافة بالمدينة أنتبه إلى ذاكرة عداد الاتصال، تقريبا نصف ساعة أخرى مضت.
أرجع مجددًا إلى النّافذة، يظهر لي من الأسفل حارس البناية التي أقطن بها بزيه الرسمي وهو يغلق البوابة الجانبية في الجدار المحيط بالبناية، أتذمر في سري، لأني سأضطر عند الخروج على المرور ببوابة مركز الحراسة الرئيسية، وسأتقاطع مكرها مع هذا الحارس اللعين!
بصراحة لا أحب هؤلاء الحراس؛ فمنذ أن أقمت بهذه البناية كساكن جديد، وهم يتطلعون إليّ صباح مساء بفجاجة منقطعة النّظير، ماذا أحمل، وما ألبس، ومن بصحبتي...! رغم أنّني وبخت أحدهم أكثر من مرة لما حشر أنفه في أمر لا يخصه. بت كأني لا أعرف مدينتي، حيث في عادة المدن الكبرى لا أحد يتتبع خطوات الآخر، أو يتلصص على حركاته وسكناته. دوما ما كنت أتساءل في قرارة نفسي: - هل دور هؤلاء حراستنا وضمان أمننا من أي تهديد محتمل من أي طرف خارجي كان، أم دورهم بدل ذلك تتبع أنفاسنا ومضايقتنا نحن القاطنين (وأنا على وجه الخصوص)، ممكن رغبة منهم في معرفة كل صغيرة وكبيرة عني أنا القاطن الجديد والمجهول بالنسبة لهم، أو غير المرغوب به إن جاز التعبير.
ألبس على عجل وأخرج.
أنتظر بعض الوقت أمام المصعد الكهربائي، في العادة لا يطول الانتظار حتى ينفتح الباب الأوتوماتيكي، آخذ مكانًا بجنب امرأة شقراء وابنتها التي تبدو في الثّالثة عشرة من العمر. ينفتح باب المصعد في طابق آخر، يظهر رجل أربعيني

يرتـدي كمامـة، يـتردد في الدخـول عـلى الرّغـم مـن أنّ هنـاك مسـاحة كافيـة. تدعـوه المـرأة الجميلـة إلى الدّخـول، يعتـذر ويتمنـع بلطـف مبالـغ فيـه. ينغلـق البـاب مجـددًا، إلى أن يصـل المصعد إلى الطّابق الأرضي، حالما ينفتح الباب أخرج دون أن ألوي خلفي، ها هو ذا الحارس النّهاري قد أخرج كرسيًا ليؤدي وظيفته المعتادة على أحسن وجه! أمر عليه من دون أن أنظر صوبه، أخرج من البوابة وأنا أشعر بعينيه تكادان تخرجان من محجريهما من شدّة مراقبتي، أقطع الطّريق الأولى ثم الثّانية إلى الرّصيف حيث المحلات التّجارية وأنا أرقب السّيّارات التي تعبر، الشّيء الذي يسر من مهمتي تلك هي أن الممهل أو المطب الذي نصّبوه مؤخرًا قرب البناية قد خفف من حركة سير المركبات.

عند ساحة الثّورة أو الكور أين ترتصف المقاهي، هناك فرقة موسيقية فولكلورية «بوسعدية» تملأ المكان بالأهازيج، يتبعها حشد من الناس، ومن المقهى غير البعيد الذي نبت كالفطر وسط المقاهي العتيقة تنبعث موسيقى أغنية كباريهات، سبق وسمعت من صديق أن صاحب هذا المقهى من الأثرياء الجدد القادمين من إحدى الولايات الداخلية المحافظة.

الأطفال يركضون في الجوار، أجتاز الحشد، أواصل تقدمي إلى أن أصل إلى الجهة الأخرى من ساحة الثّورة مقابل بناية البلدية ذات الطراز الكولونيالي، عالم آخر من الناس موزعين على الكراسي العمومية التي تظللها أشجار معمرة؛ مجموعة من العجائز يتبادلن أطراف الحديث، وأعينهم صوب

كهل كان يصرخ ويتكلم بطريقة غير مفهومة، يبدو من سلوكاته وتصرفاته تلك أنّه نصف مجنون، وغير بعيد عنهم قواد برفقة مومس من الدّرجة الدّنيا يترقبان بشغف زبائن محتملين خصوصًا من الزّوار القادمين من المدن المجاورة أو من المجندين في ثكنة لابلاص دارم، جراء ما شهدته أقدم مهنة في التاريخ من انكماش وتراجع في المداخيل بسبب وباء كوفيد-١٩.

أشعر بالجو مختنقا بعض الشيء، من بعيد تظهر غيمة سوداء، تبدو كدخان حريق أتى على الأخضر واليابس. أقطع الطّريق إلى رصيف «السيلكت» أحسن بانفراجة طفيفة؛ نسمات هواء عابرة تداعب وجهي التّعب، وقطرات مطر شحيحة جدًا بالكاد أحس بها بين شعرات رأسي المتبقية. في هذا الجو المثقل بالغيم والحر، تتالى في ذاكرتي صور ومشاهد من الحريق الذي مازال يلتهم، إلى حد اللحظة، إحدى غابات الأوراس الجزائري؛ قنوات الأخبار أكدت أنّ الحريق بفعل فاعل! وأنّ من أقدم على تلك الجريمة الشنيعة في حق الطبيعة والإنسان هم تجار الفحم. فعيد الأضحى على الأبواب، تفصلنا عنه أيام معدودات فقط، وهو مناسبة لاغتناء بعضهم من تدمير الثروة الغابية، إشعال بعض الأشجار كافٍ لحرق غابة بأكملها، طبعًا هؤلاء لا يفكرون سوى في الأموال التي سيجنونها. الجزائريون من أكثر شعوب العالم حبًا للشواء، من الحب ما قتل آلاف الأشجار والنباتات والحيوانات والحشرات!

هذا البلد الأكبر بالمساحة إفريقيا بعد تقسيم السودان، وما يملكه من ثروات طبيعية، وما يدره

عليه ريع البترول من ملايير وبلايير الدولارات، لا يمتلك طائرات مخصصة لإطفاء نيران الحرائق! يمتلك فقط طائرات حربية وعتاد عسكري ترصد له المليارات سنويا تأهبًا لحرب مؤجلة أو وهمية بين جار قريب وعدو بعيد! في حين أنّ الحروب الجديدة كما يعرف القاصي والداني أضحت لها أساليب وأدوات وميادين أخرى، كالبيولوجيا والفضاء والبحوث العلمية، وغيرها. جيد أنّني أقرأ اللحظة على شاشة موبايلي خبرا عاجلا: (الغيث هطل والمدد أتى، أمطار تساعد الجزائريين في إخماد حرائق غابات عين ميمون بخنشلة). تعوَّدنا على انتظار كل شيء من السّماء، وعاقبتنا السّماء بهذا التيهان والضّياع في الأرض. يبقى الجزائري مكتوف الأيدي وينتظر دومًا الغيب، لن تمطر السماء ذهبًا وفضة.

في قرارة نفسي تنازعني انطباعات عدمية، من الصّعب أن أخرج من الحالة العامة التي أوجدها سيّاق الجزائر العميقة، كيف بإمكان الواحد منا ألّا يغرق في وحل من السلبية والتّشاؤم في هكذا مناخ محفز على الصعود إلى الأسفل، أسفل القاع الجزائري العميق! للأسف أصبح الجزائري كائنًا سيء السمعة، كائنًا لا يحتمل!

2

٢٠٢١/٧/٨

أحاول أن أفتح عينيَّ المثقلتين جراء سهرة البارحة، فقد نمت في وقت متأخر جدًا؛ أعتقد ما بعد الثّالثة صباحًا، أتحسس سطح السّرير، أعثر على الموبايل، تشير السّاعة على الشّاشة إلى الثّامنة إلا ربع. اليوم لديَّ التزامات مهنية ما بعد الزّوال، أشعر بالحرارة في غرفة النّوم، أمد يدي لالتقاط جهاز تشغيل المكيّف، ثم أسحب طرف اللحاف تلقائيًا لأغطي نصف جسدي وأعود مرة أخرى إلى النوم.

إنّها العاشرة صباحًا، أنهض على عجلٍ، أغسل وجهي وأفرك أسناني، شعور باللّا جدوى من أيّ شيء يباغتني، يتسلل إلى تفكيري أشعر به يجتاحني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. بحركة لا إرادية أجدني أنزع عني ملابس النّوم قطعة قطعة، أقف عاريا أسفل مرش الماء، أعدل درجة حرارته، وأفتحه على الآخر، أغمض عيني وأستسلم للماء والبخار. بدأت أحس ببعض التّخفف والتّراخي واللين وما يشبه الانتشاء بفعل

بخار الماء.
مضى وقت الاستحمام المعتاد، أرغب بالمزيد، بمواصلة البقاء تحت المرش، البقاء لأطول زمن ممكن، كان تدفق الماء يغسلني من كل تلك الأفكار السوداوية، ويرفع عن جسدي كل ما علق به من إرهاق، وتعب، وثقل، وكنت شبه غائب عن الوعي وإدراك ما حولي.
في النّهاية كم سيطول الأمر، لن يستمر إلى ما لا نهاية.. لا بد من إيقاف ذلك رغم استمتاعي والتذاذي به!
أجفف بدني بالمنشفة الزّرقاء المصنوعة من القطن المصري، والتي تترك نتفًا من تساقط النسيج الرفيع جدًا على أجزاء من جسدي، ألبس على عجل، ثم أفتح الثّلاجة أتناول علبة الحليب، آخذ حبة موز وألتقط حبات كرز، ثم أغلق باب الثلاجة.
أمد يدي إلى الرّف على الحائط، أمسك علبة مكسرات الجوز الزجاجية، على الأقل هذه الثّمرة تؤمن لمن يتناولها الحماية من الخرف والصّرع والسّرطان.
أثناء جلوسي إلى طاولة الفطور انتبهت إلى رسالة جديدة وصلتني على الموبايل، إنه زميلي بن زبوشي يذكرني بأنّه سيصل بعد عشر دقائق، أتعجل في تناول فطوري، ألبس بخفة، أمرر بخاخ عطر «إيف-روشيه» تحت أذني وعلى رقبتي، أضع النّظارة «الريبان» التي اقتنيتها من بروكسل قبل سنتين، أتأكد من تسوية شعري بمشط محلية الصّنع، أتناول مفتاح «الشقة»، ثم أخرج.
لم يدم انتظاري سوى وقت يسير حتى انفتح باب المصعد الكهربائي، لم أتصادف اليوم مع أي جار لا على المصعد ولا في

مدخل البناية، أتعجل الخطوات نحو البوابة الجانبية. السّاعة في معصمي تشير إلى الحادية عشرة ونصف تقريبًا، الجوّ في الخارج قائظ ورطب، أحاول التّمهل والإبطاء من حركتي قدر الإمكان حتى لا أغرق في حمام من العرق، لست مطالبًا بقطع الطّريق، أمشي على الرّصيف المحاذي لجدار البناية، أمر على المخبزة ثم بائع المرطبات، ثم اجتاز المسمكة، وكلية الطّب وحافلات نقل الطّلبة إلى محور دوران مستشفى ابن رشد، حيث ألمح زحامًا كبيرًا وسط السّيّارات والمركبات، أسمع صوت زميلي وهو ينادي عليّ، ألمح سيارته اللوغان البيضاء في غمرة تلك الجلبة غير بعيدة عن الشّرطيين اللّذين ينظمان حركة المرور المتشعبة، أهرول صوب السّيّارة التي بالكاد تتحرك.

يستغرق الأمر وقتًا أطول للوصول إلى أطراف المدينة بسبب زحمة السّير في منتصف النّهار، تنطلق بعدها اللوغان في الطريق تنهب الإسفلت نهبًا كأنّها كانت متذمرة من تلك «العجقة»، كلما تقدمنا أكثر ارتفعت درجة الحرارة، المدينة التي أعمل بها مدينة بركانية ومعروفة بانتشار الحمامات العلاجية، هي قطعة من الجنة والجحيم في الوقت عينه؛ الطبيعة ساحرة، هناك الخضرة والجبال الشّامخات والهواء العليل، وهناك الحرارة وقسوة المناخ؛ قر بالشتاء وحر في الصيف، الحرارة هناك لا تأتي من أشعة الشمس الملتهبة فقط، بل تنبعث أيضا من أعماق الأرض البركانية، وصعوبة طباع البشر.

وصلت إلى الجامعة قبل عشر دقائق عن موعد مزاولة العمل،

نحن حاليا في فترة امتحانات استدراكية. أباشر الحصة الأولى من الحراسة على الساعة الواحدة ظهرًا، في الجامعة لم يعد أيّ أحد يأبه للبروتوكول الصّحي، عكس ما كان معمولًا به خلال الأشهر الأولى من بداية انتشار فيروس كوفيد_١٩! للأمانة نسبة كبيرة من الزملاء كانت ملتزمة إلى حد ما، علاوة على جزء مهم من عمال الكلية وإداريها، في حين هناك عزوف وإهمال مبالغ فيه وغير مبرر من قبل الطّلبة عن الالتزامات بأدنى إجراءات السلامة، شأنهم في ذلك شأن العامة والدّهماء! وقد تعذر عليّ إلى حد اللحظة إيجاد تفسير أو مسوغ منطقي أو غير منطقي لهذا الأمر غير المنتظر وغير المتوقع على وجه الخصوص.

بصراحة الجو خانق والحرارة لا تطاق في قاعات الكلية، سبق وتحدثنا مع مدير الجامعة عن ضرورة تزويد قاعات الدروس بمكيّفات الهواء على أساس أن مناخ المدينة شبه صحراوي، وأن درجة الحرارة قد تصل إلى الخمسين في بعض أيام الصّيف القائظ، لم يتهرب الرجل من الإجابة عن هذا الانشغال، بل اكتفى في المقابل بتقديم علل وأسباب واهية مثلما يفعل رجال السياسة وقادة الأحزاب بالضّبط.

مرت الحصة الأولى على أحسن وجه، رغم الملل الممزوج بالحر. في بداية الحصة الثّانية حينما مررت بين صفوف طاولات الطلبة لتسجيل إمضاءاتهم على ورقة الحضور، كانت طالبة غير بدينة ترتدي قميصًا أبيض اللون، كان ناصع البياض، لما اقتربت منها صفعتني رائحة عرق الإبطين إلى حد شعرت بتحسس حاد في أنفي. غالبا ما لا يعتني بعضهم بنظافة

أجسادهم، وهذا الأمر لا يطاق خصوصًا في أشهر فصل الصّيف. الشّيء المفرح أن أغلب الطّلبة خرجوا قبل انتهاء زمن الامتحان، ما منحني فرصة للمغادرة باكرًا ولاستنشاق هواء صاف (غير ممزوج بأيّ رائحة أخرى).
لحظة العودة إلى مدينتي عنابة المحروسة، شعرت بانتعاش كبير، وراحة عظيمة أنستني تعب الطريق، ومشقة الحر ووعثاء السفر.
وصلني إشعار رسالة جديدة على بريدي الالكتروني، حالما فتحت الموبايل وقرأت فحوى تلك الرّسالة غمرتني فرحة كبيرة أنستني رتابة هذا اليوم وشدّة قيظه؛ يا إلهي خبر الإفراج عن الصديق المخرج السّينمائي الموريتاني عبد الرحمان لاهي، بعد أشهر طويلة قضاها معتقلًا بأحد المعتقلات في موريتانيا. عبد الرحمان زميلي بمؤسسة المورد الثقافي ببيروت، إنسان جميل ونبيل، جمعتنا عدة لقاءات في بلدان شتى، كان آخرها في بيروت قبل جائحة كوفيد_١٩. هو اليوم حر طليق، نال البراءة بعد أشهر قضاها ظلمًا خلف القضبان.

3

٢٠٢١/٧/٩

اليـوم الجمعـة هـو عطلـة نهايـة الأسـبوع، كل شيء معطـل؛ أغلـب المحـلات والمتاجـر مغلقـة، والمدينـة كأنهـا ميتـة! رغـم قداسـة هـذا اليـوم في الثّقافـة الدّينيـة إلا أنّـني أتضايـق كثـيرًا مـن الشّـلل الـذي يصيـب جـل المرافـق تقريبًـا، ومـن منسـوب الكآبـة والملـل الـذي يجتاحـني حـين أجـدني مكتـوف اليديـن لا أعـرف مـا الـذي يجـدر بي أن أفعلـه، وكيـف أقـضي بقيـة يومـي بعيدًا عـن هـذا البـؤس والقـرف. لا شيء يسـتحق الذكـر، ولا أي معجـزة سـتحدث.

قضيـت سـحابة هـذا اليـوم بالشّـقة، قـرأت بعـض الصّفحـات مـن كتـاب حـول (خـوان غويتيسـولو)، تفحصـت بعـض الأخبـار، والإشـاعات، والهـذيان، والتّأبينـات، والتّعـازي، والبكائيـات، والشـكاوى، والصـور الباهتـة عـلى مواقـع التواصـل الاجتماعـي. دخلـت إلى «بروفايـلي» عـلى الفايسـبوك وكتبـت: «لمـاذا نجـد الكاتـب المكـرَّس بالمنطقـة العربيـة (في الغالـب) رغـم تقدمـه

بالعمر، لم يمر بفترة تحوّل جوهري في تجربته الكتابية؛ تجعله أكثر عمقًا، ووزنًا، ومخاطرة، بعيدًا عن نمطه المعتاد في الاستسهال، والاستعجال، واستغفال القراء..!؟»

بقيت للحظات أفكِّر في إجابة عن المسألة المحورية التي طرحتها في هذا المنشور، يبدو لي أن هناك جزءا من المسألة يمكن أن يعزى إلى ضعف وهشاشة النقد واقتصاره بشكل كبير على المجاملات والعلاقات المصلحية أو الجهوية المقيتة، علاوة على الكتابة النّقدية عن الأموات والحفر في الماضي والتّراث بشكل مبالغ فيه. كما أن الاعتقاد بالكمال قد يعتبر أول عثرة نحو السّقوط في هاوية ضحالة تجربة الكتابة وسهولتها، فمن كثرة تكرار الثيمات واجترار الموضوعات ذاتها، والتّناول السّطحي والمستعجل للقضايا الرّاهنة أو الماضية، أضحى القارئ من أول سطر يتنبأ بالنّهاية، ولا مجال مطلقًا لكسر أفق انتظاره؛ فأيّ كاتب كان بحاجة إلى صدع عميق وعنيف يزلزل ثوابت تجربته السّابقة، ولم لا، يحدث قطيعة تامة مع ماضيه وما ألفه من نماذج وأنماط وأساليب كتابية جاهزة، في حين أي اعتقاد أو زهو واهم باكتمال أو كمال التّجربة ورياديتها (كما سبق وأوردت) هو بمثابة حتف المشروع بأكمله، أو بالأحرى هو بمثابة إطلاق رصاصة الرّحمة على جثة عفنة وهرمة. هناك إشكالية قراءة، وإشكالية أخرى تنحصر في مدى قدرة الكتّاب المكرسين على الخروج من أبراجهم العاجية وملامسة هموم الناس وإسماع صوت المقهورين والانتصار للمهمشين، فهناك أيضا منهم من فهم الواقع جيدًا وانخرط في اللعبة، لا تهم

الجـودة والقيمـة بقـدر مـا يهـم التّواجـد للاسـتفادة مـن الريـع والبترودولار. فهل هؤلاء موجودين كحقائق كتابية تحمل في جعبتها أفكارا واتجاهات وتيارات في الكتابة، أم أنهم مجرّد صور باهتة وأسماء خاوية؟ خلصت إلى مجموعة مصطلحات مفتاحية لإدراك وفهم المسألة، كالشّعبية الوهمية لبعض الكتاب المكرسين، والكاتب النجم شأنه شأن الفنان، إلى غير ذلك..

اتصلت بصديق، ثم خرجت عند الساعة الثّامنة ليلًا، قصدت أتوليه صديقي تمتام الفنان التشكيلي في حي الشّيخ طاهر، لم أمكث طويلا عنده. التقيت الصّديق رابحي عند مجسم الغزالة في حي «لاكولون»، كان ينتظرني هناك ولم يرغب بالمجيء إلى الأتوليه، صديقي لديه فوبيا المشي وحيدًا في الشوارع المظلمة والخاوية على عروشها، سبق وأن تعرض لاعتداء جبان، سلب منه موبايله، وتعرض يومها لضرب مبرح. تسكعنا في شوارع المدينة شبه الخالية من المارة، تحدثنا في موضوعات متفرقة ومنفصلة عن بعضها إلى أن افترقنا غير بعيد عن قاعة السينما «لامبيا».

رجعت أدراجي وحيدًا إلى الشّقة حيث أقيم. تناولت العشاء. كتبت نصًا سرديًا قصيرًا، ظلت مشاهد برامج التّلفاز تتالى كالعادة دون أن ألقي لها بالًا، كما الأيام تتوالى بمتتالية عبثية.

4

٢٠٢١/٧/١٠

عندما يكون موعد مزاولة عملك بعد منتصف النّهار، فأن تنهض أو أن تتكاسل بالفراش سيّان، بعد تردد وترنح وتثاؤب وتمطط قررت النّهوض، الواجبات الصّباحية ذاتها؛ تغسل وجهك، تفرك أسنانك، تستحم، تلبس، تسوي شعرك الخفيف، تتناول فطورك، وتخرج كعادتك على عجل.
لا شيء مهم يستدعي التّفكير. في الطّريق إلى العمل أتسلى بتمرير أصابعي على شاشة الموبايل، الفضاء الأزرق يعج بخلق الله وبكل الأفعال الغريبة التي تخطر على بالك والتي لا تخطر على بال جن مارد! الرتابة، الملل، الحر، والبؤس المضاعف، ومشتقاتها.
تقفز أمام عيني صورة مفزعة وموجعة في الوقت عينه، صورة تابوت الشّاعرة الجزائرية سليمى رحال التي توفيت قبل يومين أو ثلاثة أيام بمصر، أفكّر بحزن وألم وغضب في ذلك التّابوت أو بالأحرى الصّندوق المهمل الذي شحن فيه الجثمان إلى الجزائر، شأن أي صندوق معبأ بسلعة أو بضاعة راكدة لا

يأبه لها أحد، ولا تعني أيّا كان! عدا أنه يحمل ملصقًا صغيرًا مكتوبًا عليه كلمة واحدة، كلمة (الجزائر)، حتى أن التّابوت الذي حلق من سماء إلى سماء أخرى، ومن طائرة إلى أخرى وهو غير ملفوف أو مغطى بالعلم الوطني كرمزية تحفظ ولو بشكل معنوي كرامة الميت، الأمر ذاته حصل مع تابوت وردة الجزائرية وغيرها من قامات البلد الذين وافتهم المنية بأرض الغربة. شعرت بالغليان في رأسي، بالخذلان أيضًا، أدركت كم هذه الدنيا بنت كلب، تتهمنا بأننا تغيرنا والذي تغير فيها عجب العجاب على قول المرحوم البرناوي: «يا دنيا يا بنت الكلب تقولي أتبدلنا وألي تبدل فيك أعجب».

أفكر مرة أخرى بغضب مضاعف في مصير الجثمان وكيف سيصل إلى عين وسارة بلدة المرحومة، ويوارى الثّرى بعد كل هذا الخذلان، هذا البلد لا يكتفي بخذل أبنائه وهم أحياء فقط، بل يخذلهم أيضا (من دون رحمة أو أدنى شفقة) وهم أموات، مصمم على أن يكمل معروفه معهم، أن لا يتركهم إطلاقًا ينعمون بالراحة الأبدية على ترابه.

5

٢٠٢١/٧/١١

اليوم ليست لديَّ أدنى التزامات بالعمل، أي يوم راحة بمثابة جنة بالنسبة لي، أو هدية ثمينة، بعد عام شاق في الجامعة جراء الوضع الجديد الذي فرضته بروتوكولات كوفيد-١٩، أصبح التّدريس مجددًا حضوريًا، مع مضاعفة عدد المحاضرات والحصص التّطبيقية بسبب إعادة تقسيم الطلبة إلى أفواج ومجموعات أصغر، والأمر ذاته في امتحانات نهاية السّنة، الكل متبرم وحانق.

نهضت صباحًا وأنا أفكّر في موعدي مع السيِّد حجار صاحب مكتبة الثّورة بساحة «الكور»، اتفقت معه على مرافقته إلى مرسم الفنان تمتام ليجلب لوحته زنقة الطليان أو شارع جوزيفين التي كانت جاهزة منذ أسبوع أو أكثر بقليل. أمام ناظري على الكرسي المقابل كتاب خوان غويتيسولو مفتوحًا ومقلبًا على وجهه، بعد أن فتحته قبل لحظات، قرأت منه أربع صفحات وأرجعته على تلك الهيئة. لم يتبق على الموعد سوى

نصف ساعة، عليّ أن أجهز نفسي للخروج.
اتصلت بالسيِّد حجار، كان الاتفاق على أن نلتقي مقابل مصحة الابتسامة غير البعيدة عن محور دوران الجسر الأبيض. وصلت قبلهما؛ الصّديق تمتام الفنان التّشكيلي لم يصل بعد، هو الآن في سيارة الأجرة التي أقلته من مركز «السي أل أس» كما سبق وأخبرني حين اتصلت به، أين نُظِّم معرض يضم مجموعة من لوحاته، في حين بقيت مسمرًا أمام واجهة المرسم الزجاجية أشاهد نسخة من لوحة فان جوغ، وخمس لوحات بتقنيات مختلفة لوجه الفتاة الأفغانية المعروفة، و»بروتريه» آخر لمسؤول ثقافي بالمدينة، حتى باغتني الصّديق تمتام، وبعد لحظات وصل السيِّد حجار. بعد أن عرفتهما ببعضهما البعض، أخذنا الحديث إلى موضوعات شتى تتعلق بالرّسم والفن التّشكيلي والمعمار، خصوصا وأن السيد حجار درس في زواغي بقسنطينة في نهاية ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن الماضي الهندسة المعمارية، غير بعيد عن مدرسة الفنون الجميلة التي درس بها الصديق تمتام بداية من عام ألفين. فضلا عن العلاقة الوطيدة بين الفن التشكيلي والهندسة المعمارية.
قصدت بعدها المدينة العتيقة «لابلاص دارم»، أكلت قطع بيتزا مع مشروب غازي في محل شعبي هناك، ثم قصدت وسط المدينة لقضاء بعض الحاجات. استغرقت وقتًا طويلًا في البحث عن «ستيك» العرق «ويليامز أنفيزيبل»، في الأغلب كل شيء يستورد في هذا البلد، ومع الجائحة تعطلت حركة الشّحن، فارتفعت أسعار تلك المنتجات المستوردة مع

تسجيل السّوق ندرة الكثير منها، حتى تلك التي تدخل تأخذ وقتًا طويلًا والنّاس في انتظارها وسرعان ما تنفد مجددًا، وهكذا تجد نفسك تدفع مبلغًا أكبر وتستغرق وقتًا أطول في البحث عن حاجتك.

اقتنيت ثلاث نبتات صبار الزينة من بائع النباتات بجانب سور حديقة الحرية بسعر جد معقول، ثم اشتريت حجارة ملونة لتزيين إناءات الصبار من عند متجر بيع مستلزمات الأسماك والطيور والحيوانات الأليفة غير البعيد عن سينما المنار المغلقة للترميم من سنوات دون أدنى تقدم يذكر في الأشغال، كما اقتنيت صحونًا على شكل قلب لغرض وضعها تحت إناءات الصبار لحفظ الماء المتسرب منها، تكلفت لي تلك المقتنيات ضعفي ثمن النّبتات الثّلاث.

رجعت إلى الشّقة، استحممت، أعددت قهوة، مع قطع الموز وكعك التين وكأس حليب، ثم استلقيت على الفراش وشغلت المكيّف والتلفاز في ذات الوقت، وبدأت أقلب في القنوات، إلى أن عثرت على فيلم سبق وأن شاهدته وأعجبني، فقررت إعادة مشاهدته، كان عنوان الفيلم: (The Ghost Writer)، على كل استمتعت مرة أخرى برؤية ومشاهدة الفيلم مجددًا كما لو أنّني أشاهده للمرة الأولى.

6

٢٠٢١/٧/١٢

إنّه يوم جديد، يبدو أنّني لم أنم بعمق طيلة الليلة الماضية، دخلت متأخرًا إلى فراشي وبعد أن نهضت في الخامسة والنّصف صباحًا بقي شتات تلك الأفكار والهلاوس التي أقضت مضجعي عالقًا في الذّاكرة.

بعد أن فركت أسناني، أزلت شعر الوجه بشفرة الحلاقة «جيلات» ذات الثلاث شفرات التي لم أتوقف عن اقتنائها منذ أكثر من عقد بعد أن اقتنيتها أول مرة من مول تجاري بمدينة أفيون كاراهيزار بتركيا، قمت بالأمر دون أن أضع أي كريم أو رغوة حلاقة، ثم فعلت بقية الأشياء المعتادة على عجل وخرجت، السّاعة تشير إلى السّادسة وعشر دقائق صباحًا.

في منتصف الطّريق إلى العمل انتبهت إلى أن الهواء السّاخن بدأ يتسلل من نافذة السّيّارة من دون سابق مقدمات، درجة الحرارة الآن ٢٨ درجة، أخبرني زميلي أنّ درجة الحرارة بالأمس

تجاوزت الخمس والخمسين درجة مئوية! دخلت إلى محرك البحث غوغل وكتبت اسم المدينة التي أعمل بها، يا إلهي ستصل درجة الحرارة بعد ساعتين إلى السّت والأربعين درجة.
وصلت قبل الوقت المحدد بساعة تقريبًا، هناك مقهى على مقربة من الثّكنة العسكرية غير البعيدة عن الجامعة، قصدته لتزجية بعض الوقت، طلبت قارورة ماء باردة وقطعة مرطبات، المقهى لا يحتوي على مكيّف هواء أو بالأحرى هو أشبه بقاعة حمام ساخنة، خرجت متعرقًا، الجوّ بالخارج ألطف قليلًا منه بالداخل. تساءلت في قرارة نفسي: لماذا أغلب المقاهي بهذه المدينة أشبه بقاعات انتظار المستشفيات أو الثكنات العسكرية؟ المقهى هو مكان للراحة والتّرفيه على النّفس، لا مكان مخصص للعقاب والتّعذيب النّفسي!
في القسم كعادتهم؛ دوما ما تبرمج الامتحانات متأخرة مقارنة بالأقسام الأخرى، هذه المرة تأخر الأستاذ صاحب الامتحان المختبر فيه عن نسخ أوراق الاختبار، وفي ذلك هدر للوقت واختبار لضبط النّفس. أصعد الدرجات التي تقسم كراسي الطلبة في المدرج إلى صفين، رائحة العرق المنبعثة لا تطاق مطلقًا، ألجأ إلى المكتب على المنصة هربا من جحيم هذا العفن.
مررت على مبنى الكلية لرؤية الأمين العام من أجل التأكيد من إيصال أثاث المكتب الجديد، فقبل سنة ونصف طلبت من منظفات الكلية تنظيف مكتبي، سلمتهما المفاتيح وغادرت مطمئنا، بعد يومين تفاجأت بأثاث المكتب مكسر إلى ثلاثة أطراف، كان ما رأيته لحظتها بأم عيني أمرًا لا يكاد

يصدق، لكن لما أعدت في ذهني تركيب صورة تلك المرأتين الضخمتين والبدينتين وهما بمئزريهما المزررين بصعوبة بالغة، فهمت كلّ شيء.
خرجت لتناول سندويتش، ثم بدأت في دوامة البحث عن مقهى يحتوي على مكيّف هواء، عثرت على واحد، الهواء منعش داخله، طلبت قهوة ومشروبًا ثمريًا، بعد دقائق شعرت بالحر، انتبهت إلى نادل المقهى وهو يطفئ مكيّف الهواء بمجرد بقائي أنا وشخص آخر في الطّاولة المجاورة بعد خروج أغلب الرّواد، تبًا ما هذه اللعنة التي حلت بي، بعد لحظات اعترض الرّجل الذي كان يظهر لي جالسا إلى الطّاولة المجاورة، كأنه اطلع على ما كان يجول داخلي. أخبره النّادل الذي قدم قبل لحظات أن مأتى إيقاف تشغيل المكيّف خوفه من ضربة هواء، بعد أن باشر عمله وهو متعرق.

7

٢٠٢١/٧/١٣

لم أنم عدا ساعتين، الآن السّاعة تشير إلى الثّامنة صباحًا، فركت الأقمصة التي تركتها ليلة البارحة في إناء مسحوق الغسيل، ثم علقتها على مشجب تجفيف الملابس، أخذت دشًا خفيفًا، تناولت فطوري، في النّهاية قضيت ساعة وأربعين دقيقة بالشّقة.

خرجت في العاشرة إلا ربع، أوقفت سيارة أجرة كي تقلني إلى محطة السّيارات ما بين الولايات، اليوم أبدأ العمل في الحادية عشرة، أفكر في أنّني متأخرٌ عن موعد العمل. حالما ركبت سيارة الأجرة أخبرني السّائق بأنّه سيقلني بمبلغ أكبر من التّعريفة المعتادة متعللًا بأنّ المسافة طويلة، وساق عدة تبريرات أخرى غير مقنعة، السّائق كان صغيرًا نسبيًا، هو في بداية مرحلة الشباب، رغم ذلك، لماذا هو جشع إلى هذا القدر!؟ منسوب البؤس يتراكم بشكل ينذر بالخراب في هذا البلد المنحور من كل الجهات، فالمواطن منكوح من قبل النّظام، ومن قبل سائق سيارة الأجرة، ومن خلال موظف

الجهاز الإداري البيروقراطي، ومن قبل رب عمله المتصلب، ومن الدّهماء والعامة في الشّارع، ومن الجميع أيضًا، أي من طرف كلّ من استطاع إلى ذلك سبيلًا. مناخ من القرف والعفن يعيد إنتاج منظومة كاملة المعالم من الاستبداد والقهر والتّخلف!

قصدت زاوية السّيّارات المتوجهة إلى المدينة التي أعمل بها. ركبت. انطلق السّائق. وصلنا. عبأت بعض الوثائق بالعمل. لم أقض وقتًا طويلًا هناك. دعوت زميلًا لي إلى تناول الغداء في مطعم من اختياره. قصدنا بعدها المقهى. ثم قفلت راجعًا إلى مدينتي.

8

١٤، ١٥، ١٦ /٧/ ٢٠٢١

قضيت سحابة اليوم ذهابًا وإيابًا من الشّقة إلى المتجر، حالما أقفل راجعًا أعتقد في كل مرة بأنّني اقتنيت جلّ الأغراض الضّرورية التي قدمت من أجل ابتياعها، وبمجرد أن أفتح باب الشّقة وأترك الماء ينساب على جسدي المتعرق، أو أغير ثيابي وأتمدد على السرير بكلّ اطمئنان، أو أجلس إلى طاولتي التي تطل على المدينة من عل، مستمتعًا برؤية المنظر البانورامي لجمال وتناقضات المدينة، إلا وتباغتني ذاكرتي المثقوبة ببعض الضّروريات التي سقطت مني، أو بالأحرى منها سهوًا. طبعًا، أنا جد مدرك لأهمية ما تذكرته لحظتها، لكن في ذات الوقت متيقن بأنّها معلومات مناسبة لكنها أتت في الوقت غير المناسب! وبكل روح رياضية (أحاول إقناع نفسي بها) ممزوجة ببعض التأفف، أخرج مجددًا لاستدراك ما غفلت عنه مسبقًا أو ما فاتني. وهكذا فعلت مرة، واستمر الأمر معي، مرتين، وثلاث، وأربع، وممكن أكثر من ذلك بقليل. لست أدري

مأتى الخمول الذي أصاب ذاكرتي في الصميم!؟ جراء التعب، أو السهر، أو تراكم المسؤوليات، أو تضخيم الأعباء وإعطاء الأمور أكثر مما يجب، أو جراء التعامل مع الحياة بجدية أكثر من اللازم، لن أصلح هذا العالم العفن حتى النّخاع كما كنت أعتقد واهمًا حينما كنت عصفورا بضًا ومتحمسًا لتغيير هذا العالم المقلوب رأسًا على عقب، هذا العالم الأصم والأعمى غول أو وحش بشع يلتهم كل من يتعامل معه بنبل وجدية وأخلاق، عالم غبي وتافه وأحمق لا يستحق من الواحد منا أن يمنحه أكثر مما يستحق من لامبالاة، وإهمال، وتحقير لتوافهه وصغائره، والوهم المغلف به.

حينما فاضت الثّلاجة بالفواكه والأجبان وأطباق الدجاج المحشو، والأرز، والمشروبات ومختلف المقتنيات الأخرى، وامتلأت خزانة المؤونة بالمطبخ، أيقنت بضرورة الإحجام عن التّبضع، والخروج ككل. قضيت أيام الأربعاء والخميس والجمعة بالشّقة، عدا منتصف نهار الخميس بعد أن وصلتني رسالة عاجلة من إدارة القسم على بريدي الإلكتروني تعلمني بضرورة القدوم إلى الكلية! قصدت الجامعة على مضض بغرض التوقيع على محضر علامات الطلبة، تبا لهم ولبؤسهم، السّفر من مدينة إلى أخرى في ظل انتشار الوباء، وخسارة أكثر من خمس ساعات كاملة، ذهابًا وإيابًا وقرفًا وملًا وهدرًا للوقت والجهد من أجل مجرد توقيع لا يقدم ولا يؤخر أي شيء أو قيمة أو كارثة، كان بالإمكان الاستعاضة عن ذلك بتوقيع إلكتروني يفي بالغرض وهم من يصدعون رؤوسنا صباح مساء بالانتقال نحو الإدارة الرقمية، والتعليم عن بعد،

والمنصة الإلكترونية، وصفر ورق، وغيرها من المصطلحات الفضفاضة والجوفاء التي يلوكونها في حضرتنا وفي غيابنا إرضاء لمسؤوليهم وخضوعًا لأولياء نعمتهم وللاستهلاك العام أيضًا، دون إرادة صادقة في تطبيقها أو أدنى نيّة في تحقيقها على أرض الواقع.

وصلت إلى المدينة التي أعمل بها، يخبرنا السّائق بأن هناك إجراءات ردعية عند مخالفة أي مسافر لارتداء الكمامة على متن سيارة الأجرة، العقوبات قد تصل إلى عشرة آلاف دينار في حق كل مخالف، لا يتوقف عن تكرار الأمر طيلة الطريق.

اضطررت إلى الخروج من محطة سيارات ما بين الولايات، والانتظار ربع ساعة حتى عثرت على سيارة أجرة فارغة، السّائق الذي أقلني من هناك إلى الكلية من أصول تعود إلى مدينة المسيلة، لما نزلت من السّيّارة انتبهت أن النّقود التي أرجعها لي السّائق أكثر من اللازم، ظننت أنه مجرد خطأ في الحساب، لما حاولت أن أدفع له الفارق بعد أن طلبت منه الاحتفاظ بالفكة، امتنع وأصر على الاكتفاء بجزء من التعريفة فقط.

دخلت إلى قاعة الأساتذة، وقعت على وثيقة الحضور، ثم وثيقة علامات الطلبة، وغادرت مباشرة على وقع تساؤل زميلة تستغرب إن كان حضوري لمجرد الإمضاء فقط!

أقلني زميل إلى المحطة، ركبت أول سيارة على أهبة المغادرة إلى مدينتي، عنابة حبيبتي.

لم أخرج من الشّقة طيلة ثلاثة أيام عدا مرة واحدة، شعرت ببعض الزّهو والاطمئنان والسّكينة، أحسست بيدي تضرب

هـذا العالـم الأعمـى عـلى قفـاه، وبقـدم رجـلي اليمـنى تـركل مؤخرتـه بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة، الابتعـاد عـن الحمقـى لفـترة أطـول يرفـع مـن المعنـويات ويحسـن المـزاج. هنـاك الكثـير مـن الأشـياء الجميلـة والممتعـة التي بإمـكان المـرء الاسـتمتاع بهـا بعيـدًا عـن المعتوهـين والمعتلـين وأنصـاف البـشر مـن المشـوهين والمـرضى والمعقديـن.

9

٢٠٢١/٧/١٧

خرجت بعد الخامسة مساء من الشّقة، عبرت طريقًا فرعية اكتشفتها قبل أيام إلى حي «السانطنة»، كما ينطقها أغلب أبناء المدينة، أو السانت آنا (القديسة آنا). ومنها إلى وسط المدينة. المدينة تعج بالنّاس. ذبت في الحشود المتدفقة من كلّ حدب وصوب. المحلات والمتاجر أيضًا مملوءة على آخرها، تأهبًا لعيد الأضحى، أدوات ومستلزمات الأضحية من مرحلة ما قبل الذبح إلى مرحلة الطّبخ والتهام اللحم، متوفرة داخل المتاجر ومتراكمة على الأرصفة المقابلة، وعلى طاولات الباعة غير الشرعيين، من آنية وخناجر وحبال وطناجر وصحون وملاعق، وغيرها. أيضا محلات ملابس الأطفال والكبار تعج بخلق الله، وكأن النّاس يلبسون في الأعياد فقط، ويأكلون اللّحم في المناسبات فقط!

لم أحتمل الزّحام. اتصلت بصديقي. اتفقنا على اللّقاء أمام مبنى البلدية الكبيرة بساحة الثّورة. قصدنا مقهى «الزّقزاق» هربًا من الزّحمة. حالما جلسنا إلى طاولة تحت شجرة ظليلة،

جاء طفل متسول من النيجر قبل وصول النادل، وبيده نصف قارورة بلاستيكة مقصوصة لغرض وضع النقود. وانطلق بلهجة جزائرية يلوك مجموعة من العبارات يحفظها عن ظهر قلب، يرددها دون توقف، كأنّه بلع كاسيت، أو مجرد آلة تسجيل تافهة.

10

٢٠٢١/٧/١٩

هذا الصباح خرجت باكرًا على غير العادة، بعد يوم شاق قضيته أمس رفقة أبي وإخوتي في سوق المواشي، وبين بعض الأماكن الأخرى القريبة منه (بسبب الندرة والارتفاع الجنوني للأسعار)، بحثًا عن أضاحي العيد. في هاته البقعة من الأرض لا شيء غير السّعار، والتّضخم، والتّردي، وارتفاع منسوب البؤس، وتراكم الملل والإحباط في جل القطاعات. السّاعة تشير إلى السّابعة وعشر دقائق صباحًا. ألقيت تحية الصّباح على الحارس المستلقي بكل جسده على كرسي بوابة الحراسة الرئيسية، وخرجت من دون أن آبه لرده على تحيتي.

أشعة الشّمس خفيفة، والجوّ في الخارج منعش يشجع على التّمشي، مررت على شخص يغسل سيارته بالقرب من ثانوية مبارك الميلي، ثم قابلتني شابة بالطّريق تعدل في غطاء رأسها وتتأكد بتمرير كفها الأيمن بخفة من أنه منسدل بطريقة تغطي نصفها العلوي. ثم رأيت عجوزًا تحمل كيسًا مملوءًا بالخبز، وشابًا ملتحيًا يعتمر قبعة رياضية

ويرتدي سماعات الموبايل، وكهلًا يرتدي تيشرت أحمر اللون يتجول في حديقة بيته، وحالما تجاوزت حي «السّانطنة»، وقسيمة الشرطة، وثانوية القديس أوغسطين، بدأت أتقاطع مع بعض المارة والموظفين المستعجلين الخطو للحاق بمواقع عملهم.

حالما اقتربت من بناية «السونترال» سألت رجلًا كان واقفا بين السيارات برفقة شيخ عن موقع مركز التّلقيح، أشار بسبابته إلى بضعة رجال في طابور غير بعيد عن سياج الحديقة العمومية، بعد أن شكرته التحقت بالطّابور وأخذت مكانًا مع المنتظرين، وهكذا بدأ توافد النّاس على المكان، لكن أغلبهم كانوا من كبار السّن. بعد انتظار دام لأكثر من نصف ساعة، انتبهت للضّجيج المنبعث من راديو شرطي بدين، دعانا ذلك الشرطي لاحقًا إلى الدّخول لأن موكبًا رسميًا سيمر بالمكان، فتح الحارس الباب، ووزعونا على كراسيَ موزعة بدورها على ثلاث خيم بنية اللون محاطة على جوانبها بغطاء أحمر، وعند مدخلها طبع العلم الوطني ورمز الحماية المدنية.

لم يتوقف تدفق النّاس، هذا نسي بطاقة الهوية، وتلك العجوز أحدثت جلبة وسط المركز، وكهل يسأل عن الجرعة الثّانية من التّلقيح، وأخرى تستفسر عن إمكانية إعطائها الأفضلية جراء مرضها المزمن، وذاك يتناوش مع الآخر، وذلك نسي إحضار الكمامة، وهكذا دواليك.. ونحن ما زلنا في انتظار البدء في مباشرة عملية التّلقيح، بعد وصول الأطباء، الموظف يقول إنّهم في انتظار وصول جرعات التلقيح للبدء. أخبرنا الموظف كذلك أن عدد الوافدين اليوم

متواضع جدًا مقارنة بالأيام الماضية، مأتى ذلك حسب تعليله أن غدًا أوّل أيام العيد علاوة عن اعتقاد العامة بأن التّلقيح يبطل صوم يوم عرفة.

حالما بدأ التّلقيح، شرعنا بالدخول، كنت السّابع في الطّابور، انتظرت دون ملل إلى أن وصل دوري، دخلت في دردشة مع الطّاقم الطّبي، كانت الأجواء رائعة كأنّ روحًا جميلة أضفت كل تلك الألفة بالمكان.

الطّقس أكثر من رائع، مستوى الرّطوبة جد منخفض، الأمر الذي يغري بالتمشي من دون أدنى عائق، عبرت على بناية الولاية، ثم اجترت بناية البريد المركزي بعد أن تفقدت صندوق بريدي هناك، من فترة لم تصل أي رسالة. مررت على بناية السّجن ثم المحكمة إلى شارع الثّورة، أين دخلت إلى مكتبة الثّورة، تبادلنا أطراف الحديث أنا والسيّد حجار صاحب المكتبة، ضحكنا كثيرًا ثم خرجت قاصدا شارع عسلة حسين بعد أن اجترت محلات الرّصيف المسقف، قطعت إلى ناصية الشّارع إلى أن وصلت إلى بناية مكتب أقرب طبيب عيون، حجزت موعدًا لصديقي رابحي، إذ تكسر زجاج نظارته البارحة وهو بالكاد يرى من دونها، والإشكال أن الرّجل لا يهتم كثيرًا بأمر صحته. بعدها قصدت شارع محطة القطار أين يقيم رابحي، صعدت أدرج البناية إلى الطّابق الثاني، حالما وصلت طرقت الباب، خرجت لي أخته، لحظات والتحق بي عند أسفل البناية. البارحة لما أوصلته عند باب البيت أبدى تحرجه مني، وأخبرني بأنّه لن يغضب مني في حالة لم أرافقه، أعلمته بأنّني أنا الذي سألوم نفسي إذا قصرت وتركته يمشي في شوارع

المدينة وحيدًا في الليل بلا نظارات طبية.
بعد أن فرغنا من موعد الطّبيب والاتفاق مع صانع النظارات الطّبية، قصدنا مقهى بجانب فندق «التورينغ»، عند مدخل المقهى صادفنا الفنان المسرحي والمغني (ر)، طبعًا أمطرني بكميات كبيرة من اللّوم والحديث عن أشياء خاصة بالفايسبوك والعالم الافتراضي، لحظتها كنت هادئًا جدًا وأفكر في سبب عدم تواصل الجزائري مع النقاشات التي تفتحها على الفضاء الافتراضي، وبمجرد أن يلتقي بك على أرض الواقع يهرب إلى مناقشتك باهتمام وحرص مبالغ فيهما في أفكار تكون قد طرحتها على وسائل التواصل الاجتماعي من خلال منشورات سبق وكتبتها ونسيتها أو بالكاد تتذكرها، ويأتي هو اليوم متذكرًا كل تفاصيلها الصّغيرة والكبيرة! صراحة مفارقة عجيبة لم أجد لها أدنى تفسير من سنوات. أما بخصوص نظرية السّبق في اللوم فهي بمثابة هروب إلى الأمام وتغطية على تقصير وأخطاء تكون قد ارتكبت في حق الملام لا في حق اللائم.

جلسنا إلى طاولة في زاوية المقهى،لم ننتبه إلى الوقت. رجعت إلى شقتي، لم أستطع الاستحمام امتثالًا لتعليمات الطّبيبة التي أخذت على يدها تلقيح كوفيد-١٩، فضلًا عن نصحها لي بتناول حبة «دولپران» مقدار ١٠٠٠ مليغرام. استلقيت أمام التّلفاز. بعد ساعتين تناولت الغداء، أعددت قهوة، ثم غفوت لأكثر من ثلاث ساعات امتثالًا إلى احتياجات جسدي للراحة. لا مسرة تضاهي وجود المرء بمعزل عن الكائنات البائسة والمعتلة نفسيًا وسلوكيًا.

يعرف قلب المرء جوهر الطّمأنينة والصّفاء حينما يكون في خلوته، ويشعر بطعم الفرح والسّعادة لحظة يكون برفقة من أحبهم ويحبونه من خلق الله على ندرتهم في هذا العالم المقفر.

11

٢٠٢١/٧/٢٠

بتُّ ليلة البارحة في بيت الوالد كي لا أفوِّت موعد ذبح الأضحية. استيقظت اليوم قبل السّادسة صباحًا على وقع خطوات أبي وهو يتوضأ استعدادًا للذهاب إلى المسجد لتأدية صلاة العيد. في المسجد التّباعد بخطوتين على أقصى تقدير (وهي مسافة غير كافية إطلاقا) مع التّخلي عن التّصافح وعناق العيد بين المصلين جراء تفشي الوباء، ومع ذلك لم يلتزم أغلب المصلين بارتداء الكمامة.

بعد أن فرغنا أنا وأخي العربي من ذبح وسلخ كبش الوالد، قصدنا بيت عمتي فضيلة (أقرب وأحب عماتي إلى قلبي) المقيمة مع ابنها الوحيد منير حبيب، فقبل أسبوع أصيبت عمتي وابنها بالوباء، على أساس أن نجد أضحيتهم بسرداب البيت كما نصحهم الوالد أمسية البارحة. حالما وصلنا وجدنا عمتي متعبة بالزاوية تتكفل بحرق الشعر على جلد رأس

الكبش وهي غاضبة من تأخرنا من جهة، ومن انفراط الجيران عنهم من جهة أخرى بسبب إصابتهم بالكوفيد-١٩، أما ابنها فكان جد منهك ويقف عاجزا (لا يحرك ساكنًا) أمام الكبش المذبوح، بصراحة تفاجأت بما وقفت عليه وكانت هواجسي ومخاوفي لحظتها من العدوى تتصاعد وتتنامى بشكل أثار الهلع داخلي، فرئتاي معتلتان وسبق وقضيت فترة طويلة أعالج ببخاخ الربو، ومع ذلك حاولت أن أتظاهر بأنّ كلّ شيء على أحسن ما يرام. طلبنا من ابن عمتي أن يبقى بعيدًا، وتكفلنا أنا وأخي بمشقة بسلخ الكبش الأقرن وتعليقه وتنظيف مصارينه وأمعائه، وغسل المكان من الدم والبراز، ثم قفلنا راجعين إلى بيت أخي الذي يقيم غير بعيد عن بيت الوالد. ساعدته في ذبح وسلخ أضحيته، كانت فطومة ابنة أخي ذات الثلاثة أعوام تؤكد لي أنّ رأس الكبش مازال فيه شيء من الحياة، وتصر على أنّ الأضحية المفصولة الرأس حية ترزق، أما أنا فسايرتها في كل ما ذهبت إليه بتحريك رأسي من الأعلى إلى الأسفل مبديًا موافقتي على كل كلمة تفوهت بها.

قصدت مرة أخرى بيت الوالد. استحممت، تناولت وجبة الغداء المكونة من الشواء ومشروب غازي وفواكه، ثم ارتشفت من كوب الشاي الأخضر إلى أن أضفت كوبًا آخرا، أخبرتني زوجة أبي أنهم جهزوا لي فراش القيلولة في قاعة الاستقبال، استلقيت على الكنبة وأخذت الموبايل، وبدأت بالرد على أول رسالة تهنئة وصلتني، فالثانية والثالثة، وهكذا دواليك من دون أن يغمض لي جفن. في المساء جاء أخي

العربي إلى بيت الوالد لقطع اللحم، ساعده أخي حقو، التحقت بهما إلى الشرفة لنقل قطع اللحم إلى المطبخ، حالما يفرغون من جزء منها. ثم قام أخي بالأمر ذاته ببيته، كانت طومة ابنته مرحة ومبتهجة بوجودنا، ومصرة ببراءتها الطفولية على بقائنا للعشاء، وهكذا استسلمنا لدعوتها رغم عشائنا الجاهز ببيت أبي. بمجرد أن فرغنا كان على أخي الذي يشتغل بالحماية المدنية (رجل إطفاء) أن يعود مرة أخرى للعمل. أما أنا فأقلني أخي حقو إلى شقتي بسيارة أبي.

من فترة لم أسمع الأخبار الجميلة تترى، قبل لحظات وصلني إشعار رسالة جديدة على بريدي الالكتروني من إدارة الكلية، أخيرًا الإمضاء على محضر الخروج في عطلة الصيف هذا الخميس، من شدة التعب والإرهاق من العمل المتواصل حتى اعتقدت بأن هذا العام لن ينتهي.. يا إلهي نهاية كابوس طويل وثقيل أنهكني طيلة فصول هذا العام الاستثنائي بسبب إكراهات الوباء وسلوكات البشر غير المسؤولة.

12

٢٠٢١/٧/٢١

البارحة نمت كجثة هامدة من أثر الإجهاد والتعب، بصراحة الأعياد عندنا على ما فيها من أجواء عائلية حميمة ومبهجة، إلا أنّها (مع ذلك) تبقى مملة، لا أحب منظر مخلفات ذبح الأضاحي؛ فأينما وليت وجهي أصطدم بمنظر الدّماء والأعلاف في الشّوارع وبقايا أعضاء الذّبائح (الجلود والسّيقان والرؤوس، وغيرها)، فضلًا عن الرّوائح الكريهة التي تزكم الأنوف بسبب براز الكباش وتفريغ مخلفات الأمعاء في الطّرقات وغير بعيد عن البنايات، أكره أيضا الشّلل العام وتوقف الحياة شبه الكلي؛ أغلب المحلات والمتاجر مغلقة وحركة النّقل شبه منعدمة، والنّاس مرابطون ببيوتهم يتفننون في طبخ وأكل لحوم الأضاحي، ومنهم من يصاب بالتخمة أو بأمراض في الهضم والأمعاء بسبب الإفراط في تناول اللحم.

استيقظت اليوم في وقت مبكر، السّاعة على المنبه الذي اقتنيته قبل أيام تشير بالضبط إلى الثامنة إلا ربع، فقد

نلت كفايتي من النّوم. نهضت من فراشي، وكالعادة قمت بواجباتي الروتينية من تنظيف الأسنان، غسل الوجه، تحضير فطور الصباح.. الجلوس إلى الطّاولة الدائرية، الاستمتاع بمنظر المدينة من عل، والغرق في حالة تفكير مع الذات.

كان كتاب غويتيسولو مقلوبًا على سطح الطاولة البيضاء، لم أقربه. شغلت التلفاز، شرعت في مشاهدة فيلم (Tombe Raider)، وسماعات الموبايل على أذني، كانت ريم حقيقي تؤدي ببراعة أغنية أندلسية صوفية حول سيدي بومدين، أحيانا أرغب في أن أقوم بشيئين أو ثلاثة أشياء في الوقت عينه مثل إشهارات الشامبوان: اثنان أو ثلاثة استعمالات في واحد، كما يتشدقون باستمرار على شاشات التلفاز ولوحات الإعلانات. على كل، الفيلم لم يكن في مستوى انتظاراتي، ومع ذلك واصلت مشاهدته. رائحة الشواء تسربت إلى الشّقة، شعرت ببعض الجوع يتسلل من فتحتي أنفي إلى معدتي، السّاعة تقريبًا الواحدة زوالًا.

حضرت وجبة سريعة لكسر الجوع، أضفت إليها صحن البطيخ وملأت الكأس من قنينة الياغورت، بعد أن التهمت طعامي، شغلت ماكينة القهوة. جهزت صينية فنجان القهوة مع الجوز وكعك الكاكاو وكأس من عصير العنب. بالموازاة مع ذلك، قرأت مقالًا مقنعًا لرئيس حزب سياسي إسلامي تابع للموالاة حول ادعاءات المخزن المغربي (حملة عداء شرعت فيها الدّبلوماسية المغربية قبل أيام فقط لثني وعدول الجزائر عن موقفها في المطالبة باستقلال الصحراء الغربية) باستقلال منطقة القبائل عن إقليم الجزائر. الجزائر والمغرب

جاران شقيقان وعدوان لدودان في الوقت عينه! وهناك من ألقى اللوم علي بسبب روايتي «زوج بغال» أو «ثلاث حيوات لرجل واحد»، والتي تصب في بناء جسور بين البلدين، وفي تأكيد أنّهما شعب واحد، علاوة عن تاريخهما ونضالهما المشترك، نفس الثقافة، اللغة والدين، كذلك العادات والتقاليد ذاتها. إذ وصفت حينها بالمثقف الساذج الذي لا يصطف خلف إيديولوجيا النظام (كمثقف للسلطة)، مقارنة بالمثقف المغربي البوق الذي يروج لوجهة نظر المخزن بتفان وانضباط وسعي حثيث. زرت المغرب عدة مرات، وأحب هذا البلد، ولدي أصدقاء هناك يمثلون صوت العقل وسط لوثة الجنون التي أصابت الجميع على الضّفتين.

وصلتني مكالمة من الوالد يتساءل لماذا لم أحضر لتناول الغداء، تذرعت بأنّ أشعة الشمس حارقة، وبأنّني سألتحق بهم ريثما تنخفض درجات الحرارة.

أغرق في غفوة قيلولة تبدو مطولة بعض الشّيء، أفقت على الرّابعة والنّصف بعد الزّوال. أتمطط في فراشي وأتثاءب، تركت صوت التّلفاز منخفضًا على قناة برامج وثائقية، استمعت من شاشة موبايلي إلى الفنانة سعاد ماسي كانت جالسة على أريكة بسمتها وهدوئها المعتاد، وبفستانها الأسود وشعرها الفاحم ووجهها الثوري غير المتصنع الزينة، مكياجها خفيف جدًا لا تكاد تراه، كانت محتضنة غيثارها وتردد بصوتها العاصمي كلمات أغنية أثارت إعجاب وتفاعل الفنانة أصالة الجالسة على شمالها: «كرهت الليل،، وكرهت الصباح،، ألي بنيتوا داتوا الأرياح،، غير الماضي والليل،، ونكره القلب

ألي حبك...». لم أكتف بأغنية واحدة، استمتعت مرة أخرى وبمتعة أيضا بكلمات وموسيقى أغنية «غير إنتا..!». شاهدت مجموعة لوحات للفنان إتيان دينيه (ناصر الدين دينيه) نشرها الصديق عبد الباقي هزرشي أصيل الجلفة، يبدو أن رابطة جميلة بدأت تنشأ بيني وبين مدينتيْ بوسعادة والجلفة. لم أنهض من الفراش، بقيت منتشيًا بأثر غواية النّوم وسحر الموسيقى والكلمات العذبة واللوحات الفنية، فتحت عيني على آخرهما، استنشقت الهواء ملء رئتي، تمططت مرة أخرى، وتنفست بعمق. ثم نهضت، السّاعة الآن على شاشة موبايلي تشير إلى الخامسة وأربعين دقيقة بعد الزّوال.

بعد ساعة تقريبًا خرجت من الشّقة، سلكت الطّريق الجانبية التي تمر على ثانوية أبي مروان وحي «السّانطنة»، ثم انعطفت يمينًا إلى شارع بن باديس إلى أن وصلت إلى شارع الأمير عبد القادر أين أوقفت سيارة أجرة أقلتني إلى بيت أبي. أكلت هناك طبق الكسكس بلحم الخروف، أين اجتمعت كلّ العائلة في سهرة دامت إلى غاية وقت متأخر من الليل.

13

٢٠٢١/٧/٢٢

نمت البارحة في وقت متأخر، ومع ذلك استيقظت اليوم صباحًا. نهضت من الفراش بتكاسل. قمت بواجباتي الرّوتينية ذاتها ككل يوم جديد. لا شيء يستدعي إعطاء الحياة أكثر مما تستحق! نحن مجرّد كائنات مجهرية بالكاد لها وزن في هذا الدرب الحلزوني الشّكل وسط بلايين النّجوم، لا أحد يأبه لها في تلك المجرة المسماة (درب التبانة)، بله الكون ككل. أجدني مجرد ذرة تراب تذروها رياح الدهر وتصاريفه أنى شاءت، لا ترى بالعين المجردة وسط هذا الكون الرحب والعظيم، غارق في تفاصيله والأسئلة القلقة تزدحم في عقلي الصغير.

الله ليس بحاجة إلى اكتشافات كريستوف كولمبس، أو لمن يثبت وجوده من عدمه، فهو ظاهر لمن يبصر، وباطن لمن لا يبصر. الله ليس بحاجة أيضا لحراس المعبد ومن ينوبون عنه، فهو قادر على حماية ملكوته وعظيم ذو بأس شديد، ورحمته لا حدود لها. اتصل بي صديقي ليهنئني بالعيد، ويعتذر كعادته عن تقصيره في التواصل والسؤال، جيد أنّه كان السباق هذه المرة، فكلما كنت أتصل به كان يكرر على مسمعي العبارة عينها: « الآن كنت أفكر

بك، وكنت على أهبة الاتصال بك، لكنك سبقتني...». لم أرغب في إحراجه، كان دوما يبادرني بتحايا دينية «كالسلام عليكم»، ويرفق كلماته بعبارات «ربي يحفظك»، «بارك الله فيك»، «ربي يسترك»، «آمين يا رب»... في مرة من المرات قررت أن أكلمه عن تلك المفارقة: كيف لشخص لا يؤمن بوجود إله وهو لا يتوانى بذكره في جل العبارات التي يتفوه بها!؟ رد عليّ بكل بساطة على أساس أن ذلك وليد العادة والعرف والمناخ الاجتماعي الذي نشأ فيه. صديقي يحتفي برمضان بالأطباق والطقوس التي ترافقه طيلة أيام الشهر، ويقتني أضحية العيد، وغيرها من المناسبات الدينية، هو من متتبعي السيد القمني، وبرامج رجال الدين المسيحيين والشيعة لتصيّد عثرات أو فجوات متعلقة بالإسلام والصّحابة. لست أدري هل هناك فائدة ترتجى من إضاعة الوقت في هذا الهراء! كنت دومًا أقول في قرارة نفسي: كان من الأجدر به أن يهتم بالاشتغال على بحث جديد في تخصصه، أو من الأحسن أن يؤلف كتابًا أكاديميًا ينفع به نفسه وغيره، أو يقدم أدنى إضافة وسط هذا العالم البائس والمقفر. كان يحدثني عن النبي محمد بعبارات مشينة، ويتهمه بالمثلية، وغيرها من الأوصاف الأخرى. لحد السّاعة لم أفهم أي منفعة حصل عليها صديقي من كل ما أقدم عليه في حق الدين، هل يمكن أن يكون الدين خصمًا يعيش الواحد منا الدّهر كله يكيل له التّهم والشّتائم؟ لا أعتقد أن هناك طائلًا من وراء ذلك. ولنفترض مع صديقي أن الدّين لا وجود له، وهو مجرد وهم صنعته مخيّلة البشر، على الأقل هذا الدّين/ الوهم (كما يصفه اللا دينيون) إن صح التّعبير ساهم ويساهم حسب اعتقادي (طبعًا) في خلق التّماسك والاطمئنان النّفسي لدى الإنسان، وهو بدوره ما يضمن استمرار الحياة وبقاء الجنس

البشري.
غياب الدّين يعني استشراء الاكتئاب، فضلا على انتشار الاعتقاد باللا جدوى من الحياة، وفتح الباب على مصراعيه أمام الانتحار كطوق نجاة من الفراغ والخواء!
ومع ذلك أحب صديقي وأكن له كلّ التّقدير، فأنا لست وصيًا على الدّين، ومادام لم يخطئ في حق النّاس يبقى الأمر برأيي مرتبطًا بينه وبين الخالق. في المقابل أكره سلوكيات زميل لي بالعمل، يظن أن الله اصطفاه على غيره، تراه يتشدق صباح مساء بأمور الدّين، ولا يخلوا حديث له من آية أو حديث نبوي أو فتوى، في حين اكتشفت أكثر من مرة سرقاته العلمية من الطلبة الذين يشرف عليهم، ووقفت على تحايله وعدم صدقه وتفانيه وإتقانه للعمل. غليظ الطّباع منفر ولا مواقف مشرفة له، يظن نفسه أنه ينوب عن الله لما يطلق أحكامه الجاهزة على سلوكيات وأفعال الآخرين. يتظاهر بالعفة وهو يرتجف بمجرد وقوف أنثى بالقرب منه، تجده يقضي وقته في التّفكير في كيفية وقوع الطّالبات في شباكه، ويختلق الحكايات مع الأستاذات كلما تتاح له الفرصة، ويحشر نفسه دومًا، فأينما ذهبت وجدته رفقتهن يستعرض ويتظاهر بشكل منفر ومقزز.
خرجت من شقتي عند منتصف النّهار، قطعت الطّريق ذاتها. حينما وصلت إلى بيت الوالد وجدت هناك أختي هدى أستاذة الرياضيات برفقة أختي آسيا مع ابنها أنيس وابنتها نهال، استمتعت بطعم اللحم المشوي والسّلطة والمشروبات وفاكهة البطيخ الأحمر المنعشة. بعد أن اتصلت للاطمئنان عن عمتي المصابة بفيروس كوفيد_١٩؛ أين وصلني صوتها متهالكًا من خلف سماعة الموبايل، شربت الشّاي الأخضر على وقع المخاوف التي راودتني عن عدم

صمودها أمام هذا الوباء الذي لم يسبق له مثيل وهي ذات الثانية والسبعين من العمر، ثم تبادلت أطراف الحديث مع أفراد العائلة، وسمعت حكايات لا حصر لها روتها لي ابنة أختي الصغيرة نهال، استسلمت دون أدنى إدراك لسلطان النوم.

حالما نهضت من قيلولة قصيرة، وصلتني أصوات المفرقعات والألعاب النارية والزغاريد احتفالا بنتائج شهادة البكالوريا المعلن عنها قبل لحظات فقط. أحيانًا أقول في قرارة نفسي وبصوت مسموع أيضا: «لماذا الجزائري لا يعرف كيف يحزن ولا يدرك أيضا كيف يفرح، فهو كائن غريب الأطوار (في الغالب) لا يتقن فن العيش والحياة بالأساس!»، ففي وسط المدينة يحتفل هؤلاء النّاجحون (من فتيان وفتيات) من خلال إطلاق العنان لأبواق السيارات، وإخراج نصف أجسادهم من نوافذ تلك السيارات أو الجلوس على حافة الصندوق الخلفي بينما هي تسير في الطّرقات والشّوارع بشكل جنوني في مواكب تثير الكثير من الفوضى والهلع وحوادث السير أيضا. المدينة تنقلب رأسًا على عقب؛ ضجيج، فوضى، أهازيج، أغاني الراي المنبعثة بأقصى حد من نوافذ السّيّارات نصف المفتوحة ومن شرفات الشّقق والبنايات، إطلاق العنان لكل الطّقوس الغريبة، تتحول المدينة إلى مصحة مجانين بامتياز، لا فرق بين عاقل ومجنون، يختلط الحابل بالنابل، لا حرص ولا أدنى احترام للتدابير الوقائية من انتشار العدوى بالوباء، وتستمر تلك الطّقوس وذلك الجنون إلى غاية شروق شمس اليوم الجديد، لتتواصل مرة أخرى (بعد استعادة الأنفاس) وبنفس الطّقوس المعتلة والبدائية التي تشي بالكثير من سمات التّخلف في مجتمعات الأطراف.

رجعت إلى الشّقة. استحممت. درجة الرّطوبة اليوم مرتفعة

جدا بشكل لا يطاق، إلى حد يرغب الواحد في الخروج من جلده. تناولت جزءًا من العشاء الذي أحضرته معي من بيت أبي. شغلت المكيّف، واستلقيت على السرير منهكًا ومتهالكًا كأنّني قادم للتوّ من حرب ضروس. السّاعة على شاشة موبايلي تشير إلى العاشرة وأربع وعشرين دقيقة ليلًا.

مازلت مستيقظًا، السّاعة الواحدة وعشرون دقيقة، أشاهد برنامج حول لحن قديم من بلوشستان؛ ثقافة مختلفة وتراث موسيقي مغاير وعادات خاصة في الغناء. ومن نافذة غرفتي تصلني بين الحين والآخر صيحات الناجحين في شهادة البكالوريا وضجيج السيارات التي تقلهم مع أصدقائهم المحتفلين معهم والذين يقاسمونهم فرحة النجاح. كيف أستطيع النّوم وقد تعالت أصوات المفرقعات من جديد؟ تأخر الوقت كثيرًا، يبدو أنّني جد متعب الآن، أشعر بالنّعاس.

14

٢٠٢١/٧/٢٣

مـن يتأخـر في النّـوم يسـتيقظ دومـا متأخـرًا، ومـن ينـم باكـرًا يسـتيقظ دومـا باكـرًا، لا أعتقـد أن هـذه القاعـدة الـتي لطالمـا سـمعناها في طفولتنـا بصيـغ متعـددة (والـتي مـلأ بهـا الكبـار عقولنـا) تصـح دومـا؛ البارحـة غفـوت تقريبـا في الثّانيـة صباحًـا، واسـتيقظت اليـوم عنـد السّـابعة صباحًـا! بقيـت سـاعتين في الفـراش، شـغلت التّلفـاز، الصّـور والمشـاهد تتـالى مـن دون أن آبـه لهـا، عـدا صـوت التّلفـاز الـذي يسـليني ويضفـي بعـض الأنـس والحيـاة عـلى المـكان.

بعـد سـاعة أخـرى مـددت يـدي إلى يميـني، تلمسـت سـطح السّـرير، سـحبت الموبايـل، حالمـا انتبهـت لشاشـته رأيـت فيديـو أنزلتـه الصّديقـة رنـا، كانـت تبـدو منهكـة ومتهالكـة، وجههـا شـاحب بشـكل يثـير الخـوف والهلـع، كأن عزرائيـل غـير بعيـد عنهـا، قـرأت النّـص المرفـق: « ويبقـى المـرض ينهـش أجسـادنا بـلا رحمـة، دعواتكـم لي بالشـفاء العاجـل يا رب..». يا إلهـي إنّـه الفيـروس اللعـين، لا يمـل ولا يـكل، هـو أشـبه بيأجـوج ومأجـوج

أم بالمسيح الدجال؟ لن يهنأ له بال حتى يقضي على أغلب سكان هاته البسيطة أو المعقدة إن جاز التّعبير، إذ استحال العيش فيها بوجود الفيروس وبدونه أيضا، الأمر سيَّان، إن لم تمت بالوباء مت بغيره، فهناك الأنظمة القمعية الرّابضة على أنفاس النّاس في المنطقة العربية، تقبض الأرواح وتنكل بالجثث. وهناك أيضا الجهل والتّخلف وغيرهما، يكملان ما تبقى وما سقط سهوًا من الفيروس اللعين ومن تلك «الأنظمة الغبية»، كما كان يصفها صديقي الفنان المسرحي (ح) كلما التقيت به، كان يردد: «أنظمة غبية»، «أنظمة غبية»... بالمناسبة، مضت عدة أسابيع لم نتحدث، بعدما شاركني تقديم فعالية اقتباس روايتي «زوج بغال» للمسرح، كان يومها برفقتي على المنصة، كان مخمورًا حد الثّمالة، ما سبب لي إحراجًا كبيرًا مع الجمهور، بدأ يهذي، ويشتم، ويسب، ويتصرف بعدوانية، خرج كليّة عن الموضوع وعن الخريطة ككل، قام بسلوكات وتصرفات استغربها واستهجنها أغلب الحاضرين، علما أن من بين الحاضرين كان هناك أطفال تسببت الحادثة في إرعابهم وإثارة فزعهم. التقيت به بعد تلك الحادثة مرة واحد بجانب بناية المسرح، من بعيد بدأ يقوم بحركات بهلوانية بيديه، لم أفهم مغزاها! ثم خاطبني: «تبدو غاضبا مني..؟، جاوبته باقتضاب ومن دون أن اقترب منه: نعم. ثم واصلت مسيري. مضى على ذلك اللقاء العابر شهر ونصف.

فتحت الثّلاجة، أخذت قطعة كعك بالشّكولاتة وقطعة أخرى بالمربى من العلبة التي منحتنها لي أختي هدى بالأمس،

أضفت لهما قطعًا من الجوز وكأس حليب ساخن بالشّكولاتة.
بعد الفطور قمت بغسل بعض الملابس الخفيفة التي وضعتها البارحة في إناء الماء الدّافئ الممزوج بمسحوق تنظيف الملابس، علقتها على مشجب نشر الغسيل، ثم فتحت السّتائر من أجل أن تصلها أشعة الشّمس.
طبعًا، اليوم جمعة، ولا شيء يغري على الخروج من الشّقة، أقف للحظات أتملى منظر المدينة من عل، وأحاول أن أتنفس بعمق، وأنا أتمعن في البنايات والخضرة والبحر الفيروزي من بعيد.
جلست إلى الطّاولة، استغرقت في الكتابة، لست أدري كم من الوقت قضيت على تلك الحال، كانت الغرفة منعشة ومحفزة، إلى أن وصلتني رسالة من صديق لا تربطني به صداقة متينة، كتب فيها: «جارتنا إلى حد الساعة تزغرد كأن ابنها أمضى عقدا مع فريق برشلونة». يصاب الناس هنا بمتلازمة الفرح بشهادة البكالوريا، متلازمة غريبة ومنتشرة بشكل واسع، تسبب إفراطًا في مشاعر الفرحة حد قيام المصابين بها بسلوكات وتصرفات لا تخطر على البال.
السّاعة الآن اقتربت من الواحدة زوالًا، وقفت للحظة ثم قصدت المطبخ. قطعت الطّماطم إلى دوائر، أضفت لها الملح وعقار التابل والكروية ورأس الحانوت ثم مزجت الخلطة، أخرجت اللحم المطهو على البخار من الثّلاجة، وضعته على نار هادئة في المقلاة مع بعض الزّيت والزّبدة ودوائر الطّماطم، ثم وضعت عليها الغطاء. لم يستغرق الأمر طويلا حتى جهزت الطّبخة، وضعت الطّبق على الصّينية أين أضفت

لـه صحنًـا صغـيرًا مـن قشـدة الجـبن وقـارورة عصـير العنـب. اسـتمتعت بالوجبـة اللذيـذة، وبالتّجربـة والمغامـرة، حـتى أنّـني لـم أصـدق أنهـا مـن صنيـع يـدي، أنـا الفاشـل دومًـا في مهـارات الطّبخ، حبيب ومدلل أمي الأمازيغية فاطمة بارة رحمها الله، أنا جد مستغرب؛ فكيف لمن كان لا يجيد سوى قلي البيض أن يقوم بتلك المعجزة! صحيح أن الحاجة هي أم الاختراع كما كانـوا يعلموننـا في الصّغـر، وأن النـدرة تخلـق الحاجـة والقيمـة في ذات الوقـت، وأن الربـح ثمـن المغامـرة كمـا علمونـا بكليـة الاقتصـاد وعلـوم التسـيير.

أعـدت قهـوة ممزوجـة (روبيسـتا وأرابيـكا) كمـا أحبهـا، أخرجـت حبـات كعـك الـكاكاو، وأضفـت حبـات مـن مكسـرات الجـوز في كأس صغير. جلست إلى الطاولة البيضاء مرة أخرى لارتشاف القهـوة حـتى وجدتـني اسـتغرق في التّفكـير. بعـد لحظـات قصـيرة أو طويلـة، لا أدري بالضبـط، مـددت يـدي لالتقـاط الموبايـل، مـن علـى شاشـته شـاهدت مجموعـة مـن لوحـات الفنـان دانيـال نايـت (Daniel R. KNIGHT)، يصـور فيهـا تصويـرًا دقيقًـا حيـاة الفتيـات بالريـف، ومختلـف الأعمـال الـتي كـن يقمـن بهـا خـارج المـنزل. عالـم جميـل وسـاحر أدخلـني لـه هـذا الفنـان بسلاسـته المعهـودة، فالريـف ريـف والمدينـة مدينـة، وحـذار المـزج بينهمـا أو الخلـط، مـأتى تشـوه مدننـا وأريافنـا اليـوم راجـع بشـكل أسـاسي لهـذا الخلـط والعبـث! فاسـتعارة أو تلبـس العقليـة البدويـة تسـببت في خـراب مـدن بأكملهـا. هـذا مـا أحالـني عـلى التفكـير في مرحلـة سـابقة عرفتهـا الرّوايـة الجزائريـة أيـن احترفهـا بعـض المثقفـين القادمـين مـن القـرى والمداشـر، فطيلـة عقـود

من الزمن لم تقدم الرواية على أيديهم أي إضافة ولم تستفد من أدنى تقدم، بقيت تراوح مكانها، تترنح، وما برحت تتراجع وتتدهور، إلى أن ظهر جيل جديد من أبناء المدن يكتبون الرواية بشكل مختلف ومتميز، فالرّواية كما يعرف القاصي والداني هي ابنة المدينة بامتياز، عدا استثناءات قليلة جدا لا يمكن أن يقاس عليها.

خفضت من صوت التلفاز، تسمرت واقفا أمام النافذة أستمتع بالمنظر الأشبه بلوحة تشكيلية على وقع نغمات أغنية «عودتني..» للفنانة اليمنية الشابة فاطمة مثنى، على اليمين تتراءى لي بقايا القلعة الحفصية غير بعيد عنها فندقي الشيراتون وبلازا، أما من الشمال فتظهر كنيسة القديس أوغسطين (لالة بونة) رابضة على هضبة مرتفعة تحيط بها الأشجار والآثار الرومانية. لم انتبه إلى الوقت الذي قضيته أمام النّافذة، ولم أشعر مطلقا بوطأة الوقوف، وكانت الأغنية تتكرر من جديد حالما تنتهي، وكنت منتشيًا بالأداء وبصوت العود وآلات العزف الأخرى وبالمنظر البانورامي أمام ناظري.

شربت كأس حليب بارد مع الفاكهة والكعك، نظفت إبطي ثم مررت عليهما جل مزيل العرق، رششت بعض العطر على رقبتي ثم خرجت من الشّقة على السّاعة الخامسة وأربعين دقيقة، عبرت الطّريق الفرعية ذاتها، انعطفت إلى مفترق الطّرق الأربع بحي لاكولون، توقفت للحظة كي اتصل بصديقي الفنان التّشكيلي تمتام لتأكيد موعدنا. حالما وصلت إلى حي «إليزا»، اجتزت رصيف محور الدوران يمينا إلى حي

«الشّيخ طاهر» وبالضبط إلى أتوليه صديقي، كنت أمشي في الأرصفة المظللة هربا من أشعة الشمس الحارقة. كان صديقي منهمكًا في مشاهدة فيديوهات قصيرة على النت. بينما كنت غارقًا في اكتشاف تفاصيل لوحته الجديدة؛ قارب على شكل رقم واحد، وعليه المئات من رقم اثنين وسط بحر متلاطم وجو متقلب وغائم. في البداية قرأتها وكأنها لوحة عن الهجرة غير الشرعية (الحرقة)، في حين أخبرني صديقي إنها لوحة تستعيد زمن الطوفان، أو هي بمثابة بداية ثانية للحياة، أي بداية النبي نوح جراء الطوفان الذي أتى على الخلق، والتي كانت بعد بداية النبي أدم الأولى للحياة. في حين رقم اثنين يدل على زوجين من كل المخلوقات، أما الرقم واحد على القارب فهو يحيل إلى الإله الواحد. طبعا اللوحة قد تحمل عدة تأويلات أخرى وفق اختلاف المنظور الذي يراها به كل واحد. أما أنا فكنت أفكر في هل ستكون هناك بداية ثانية بعد الوباء؟

في طريق العودة رافقني الصّديق تمتام إلى غاية منتصف الطّريق ثم عاد أدراجه، اقتنيت بعض الأغراض من السوبر ماركت، وأكملت طريقي إلى الشّقة، حالما وصلت اتصل بي زميل يعلمني بقرار جديد صدر قبل لحظات من قبل وزارة التعليم العالي، تعلن فيه عن تعليق كل النّشاطات العلمية والبيداغوجية على مستوى جامعات الوطن من دون استثناء، وتأجيلها إلى غاية بداية شهر سبتمبر، جراء عودة انتشار الوباء مرة أخرى بشكل ينذر بالخطر. الوضع غير مطمئن، وقد اشتغلنا طيلة هذا العام في ظروف كنا معرضين من خلالها

لـكل أصنـاف التّهديـدات مـن دون توفـر أدنى حمايـة أو شروط سـلامة كافيـة. طبعًـا، بالجامعـة الـتي أعمـل بهـا أمضينـا عـلى محضـر الخـروج في عطلـة الصّيـف بالأمـس فقـط، لأنّنـا أكملنـا جـلّ الأعمـال المنوطـة بنـا، في حـين هنـاك جامعـات أخـرى كان مـن المفـترض أن تكمـل إلى غايـة نهايـة الأسـبوع القـادم.

15

٢٠٢١/٧/٢٤

لا أحب الرقم أربعة وعشرون، يذكرني بمكان سيء جدًا، وبأناس حمقى فرضت عليّ ظروف بعينها التّعامل معهم. عمومًا استيقظت كالعادة، بقيت في الشّقة لا شيء يغري بالخروج، الوحدة والصّمت أفضل بكثير من عالم يعج بالحماقات والرّتابة والحر والرّطوبة والعدوى! وفي الأفق هناك أخبار عن غلق عدة مدن جراء عجزها عن مواجهة الوباء؛ والشّلل التّام في اغلب المرافق الصّحية، تذمر النّاس من نقص كميات الأكسيجين الاصطناعي وسوء إدارة توزيعها على المستشفيات، وعجز الأخيرة عن استقبال المزيد من المصابين بالوباء، وارتفاع معدلات الوفيات بشكل ينذر بكارثة وشيكة.

أرقام لوحات السيارات المختلفة تغزوا المدينة، هناك نزوح كبير من مختلف الولايات القريبة والبعيدة للاصطياف والاستمتاع بالبحر، لا أحد يبالي بالوباء، الأمر الذي جعل أحد

معارفي يفقد أعصابه مخاطبًا هؤلاء: « عزيزي القادم من مدينة داخلية، بإمكانك أن تستمتع بالسّباحة والاستلقاء على رمال شواطئنا الذّهبية، على الرّحب والسّعة.. لا مانع لديّ أيضًا إذا لم تقتن أيّ شيء من متاجرنا ولم يستفد منك اقتصاد مدينتنا.. رجاء عند مغادرتك خذ معك قشور فاكهة الدلاع والبطيخ خاصتك، ولا تنسَ أيضا حفاضات ابنك أو ابنتك الرّضيعة، من فضلك لا تتركنا نجمع لك قمامتك.. هذا دون أن أتحدث عن عقليتك ومنطقك الغريب الذي جلبته معك وترغب في فرضه على الجميع هنا. السّياحة الدّاخلية لا تجعلك تنسى أنّك ضيف بالأساس، ولا تمنحك الفيتو كي تتبول أو تتبرز غائطك في أيّ مكان».

استغربت قرار غلق شاطئي محمية «موريتي» و»نادي الصنوبر» المخصصين لكبار المسؤولين بالدولة، في حين تم الإبقاء على بقية الشّواطئ مفتوحة، فالتّشجيع على انتشار الوباء، لا يعدو أن يكون جريمة كاملة الأركان مع سبق الإصرار والتّرصد.

أمامي على الطّاولة كتاب، بقي على حاله، أفكر في فتحه والقراءة لبعض الوقت، أعجز عن القيام بذلك بسبب الرّتابة والملل والضّجر. أشعر ببعض الجوع بدأ يتسلل إلى معدتي، عليّ الذهاب إلى المطبخ لتحضير شيء ما أسكت به جوعي، السّاعة الآن تشير إلى الثّانية عشرة ونصف، موعد الغداء، السّاعة البيولوجية لا تكذب، أسمع الآن من نافذة شقتي المؤذن وهو يرفع آذان صلاة الظّهر.

بعد ساعة أخرى اتصلت بأختي، ثم بعمتي، كي

أطمئن عليهما، أختي آمال بدأت تتعافى تدريجيا من الوباء، في حين حالة عمتي جد حرجة فصوتها يصلني من سماعة الموبايل ضعيفًا ومنهكًا وهي بالكاد تستطيع التّنفس أثناء تكلمها معي. أخبرتني أن جسدها كأنّه مرجل يغلي، رغم قوة عزيمتها وعدم استكانتها وهلعها من الوباء، إلا أنّها لا تجد الطّاقة الكافية على الصّبر على جسدها الملتهب. طيلة الأيام الماضية بقيت مشغول البال بعمتي فضيلة، أتمنى أن أسمع قريبًا خبرًا مفرحًا؛ فصبيحة اليوم سمعت خبرًا سيئًا، الوباء اللعين خطف حياة الفنان المسرحي أحسن عسوس صديق الروائي المعروف كاتب ياسين، كنت قد التقيت به قبل أربعة أشهر بالمسرح الوطني بالجزائر العاصمة، كان رجلًا متمردًا غير خاضع، يعبر عن رأيه بصوت مسموع، كان جد ناقم على وضع الثقافة المتردي ومآلاتها الخطيرة في بلد غني بالثروات والموارد!

اتصل بي البروفيسور بوقلقول يعلمني أن مناقشة رسالة الدكتوراه المبرمجة يوم غد قد أجلت بسبب القرار الاستثنائي للوزارة، تنفست الصعداء، وشكرته ثم أنهيت المكالمة، على الأقل أرتاح قليلا، ولدي متسع من الوقت خلال العطلة كعضو في لجنة المناقشة للاطلاع أكثر على مضمون الرسالة. بعد ساعتين تقريبًا اتصل بي مجددًا يعلمني أن مدير جامعة عنّابة في اجتماعه اليوم مع عمداء الكليات، أمرهم بعدم إلغاء مناقشة الرّسائل العلمية التي تمت برمجتها مسبقًا، والتي استوفت كافة الإجراءات الإدارية. يعني ينتظرني غدًا صباحًا عمل شاق ومهمة فيها مخاطرة،

رغم أنّ المناقشة مغلقة وغير مفتوحة على الجمهور، إلا أن كل شيء وارد، فنحن في مواجهة «فيروس متحوِّر مع شعب متهوِّر، بنظام صحي غير متطوِّر»، كما كان يردد صديقي شيوة عزالدين! شعب ينظم الولائم والأعراس وحفلات الختان والنّجاح في عز الأزمة الصّحية، شعب لا يُعوَّل عليه.

السّاعة الآن تشير إلى الرّابعة وربع بعد الزّوال، لم أخرج بعد من الشّقة؛ فضلًا عن عدة مسوِّغات أخرى، فقد قرأت اليوم صباحًا نشرية استثنائية للأرصاد الجوية، تؤكد أنّ درجة الحرارة اليوم ستتجاوز الخمس والأربعين درجة، كانت النّشرية تحذر من مغبة الخروج والبقاء لفترة طويلة تحت أشعة الشّمس. أسدلت ستائر غرفة النّوم، رجعت إلى السّرير، استلقيت مجددًا على ظهري، وضعت الموبايل جانبًا، خفضت من صوت التّلفاز، وحاولت التّقلب على جانبي الأيمن، وإغماض عيني بعد أن لففت نصف جسدي باللحاف إلى درجة أنني غطيت وجهي أيضًا. شعرت براحة كبيرة بعد أن صحوت، أكثر من أربعين دقيقة قضيتها نصف نائم ونصف مستيقظ.

السّاعة السّادسة إلا عشرين دقيقة، اتصل الصّديق رابحي، يسألني عن إمكانية أن نلتقي، كما أخبرني بأنّ الجوّ مازال ملتهبًا بالخارج، متسائلًا عن الدّرجة التي بلغتها الحرارة اليوم، لما أخبرته، طلب مني المكوث ربع ساعة أخرى بالشّقة، وبعدها نلتقي عند منتصف الطّريق حسب قدرته على المشي. مضى على آخر لقاء بيننا خمسة أيام، في العادة نلتقي باستمرار. تذكرت، سبق وأخبرني أنّه على أهبة الدخول في عزلة إبداع، سيخرج منها بنص جديد في مجال النقد

(الأدب والفن التشكيلي) أو في المسرح (نص مسرحي).

السّاعة السّادسة وعشرون دقيقة تقريبا، خرجت من الشّقة، الجوّ مختنق وملتهب، رغم أنّني غيرت ملابسي عند باب الخروج، استبدلت بنطال الجينز والقميص ذا الياقة بشورط قصير وتي شيرت خفيف. اتصل بي مرة أخرى صديقي رابحي يعلمني أنه سينتظرني بمحاذاة مطعم «ترافل»، غير البعيد عن محافظة الشرطة الثالثة.

تسكعنا قليلًا وسط المدينة، صادفنا قرب حديقة الحرية مجموعة مكونة من ثلاثة مهرجين وسط الطريق يوقفون في أصحاب السّيّارات لدعوتهم إلى حفل افتتاح محل ملابس جديد، طبعًا وكالعادة دون ارتداء الكمامات ولا اتباع أدنى إجراءات التباعد والسلامة. جلسنا إلى طاولة بمقهى «الزّقزاق» تحت شمسية كبيرة الحجم، أشعر بالضجر من استمرار ضغط الهواء السّاخن والجوّ الرّطب، أتحسس جبيني، أمسح بأصابعي حبات العرق. شرع النادل في جمع الكراسي والطاولات الشّاغرة، كان يأخذها إلى غرفة على شكل مخزن صغير بجانب باب المقهى. يصلني صوت أذان المغرب من مئذنة مسجد الرّحمان، بعض النّسمات الباردة أشعر بها تدغدغ ساقيّ رجليّ. اقترب مني النادل بعد أن دفع له صديقي، أخبرني قائلًا: «إلا أنت من يفهمني في لالجيري..».

خرجنا من المقهى، تسكعنا مرة أخرى وسط المدينة، مررنا على مكتبة الثورة، حتى وجدتني في المدينة العتيقة «لابلاص دارم»، لما وصلت رحبة سيدي شريط، انعطفت شمالا تجاه مقهى الصّم البكم، قبل الوصول إليه

سلكنا دربًا متصاعدًا، ثم دخلنا متاهة من الأزقة الضَّيِّقة المتتابعة، لن يجرأ أيّ غريب على ولوجها، إلى أن خرجنا أسفل «العقبة»، لا أدري لماذا تذكرت روايتي «زنقة الطّليان» التي جرت أحداثها في شارع جوزيفين وفي دوروب المدينة العتيقة كفضاء للشخصيات والأحداث! مضت أسابيع فقط على نشر تلك الرواية، وقد لاقت قبولًا لافتًا إلى حد جعل النّاس تتذكر المدينة العتيقة الآيلة (نسبة كبيرة من بنايتها) إلى السّقوط، الجميع أضحى يتحدث عنها بعد إهمال طويل، وينظم زيارات وجولات داخل أزقتها، جيد أن الرواية حركت تلك الرغبة في نفوس الناس. لكن يبدو أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد محاولة لركوب الموجة ولالتقاط صور تذكارية، (وحتى أكون منصفا كانت جمعية «المدينة» سباقة، ولها عدة مبادرات لترقية وحماية والحفاظ على تراث ومعمار المدينة العتيقة). فبعد رواج الرّواية بالمدينة وخارجها، نشأت حملة تشويه ضد شخصي وضد الرّواية (على أساس أنّ الرّواية تشوه تاريخ المدينة العتيقة)، من أناس لم يقرأوا حرفًا واحدًا من الرّواية، فضلًا على أنّ الرّواية ليست تاريخية بالأساس! أشخاص لم يسبق وان دخلوا أزقة ودروب المدينة العتيقة، ولم تطأ أقدامهم شارع جوزيفين إلا بعد نشر الرواية، أين تعرفوا على الشارع من غلاف الرواية ومن حديث النّاس عنها، ومن الصدى الإعلامي الذي حظيت به الرواية. يتجمعون كالخفافيش في مكان مغلق، يحرضون ساكنة المدينة العتيقة ضدي بمساعدة خياط يرتزق، حوّل محل الخياطة إلى مقهى، وأي شخص يدخل المقهى يملؤون رأسه بهرائهم. طبعا لا

أهتم بتلك العداوات المجانية، فأنا ماضٍ في طريقي لا ألوي خلفي، لكن ما عجزت عن إيجاد جواب له إلى حد اللحظة هو: ما مبعث تلك الكراهية ومنسوب العدوانية في حقي، علمًا بأنه لم يسبق وأن جمعتني أدنى علاقة بهؤلاء!؟ أضحى كلّ من هب ودب يتجرأ على سبنا وشتمنا.

16

٢٠٢١/٧/٢٥

هذا الصّباح صحوت من النّوم قبل رنين جرس منبه الموبايل بدقيقة واحدة، كنت قد برمجته على الثّامنة صباحًا، فأنا مرتبط اليوم بمناقشة رسالة دكتوراه بالجامعة. أفقت جد متعب بعد ليلة أرق. راجعت على عجل التّقرير الذي حضرته من قبل. استحممت. قمت بتنظيف أسناني بمعجون يحتوي على مادة الفحم، بعد ذلك قمت بحلاقة شعر وجهي. فطرت. غيرت ملابسي. مررت عبوة جل العرق على إبطي، رششت من عطر بوشرون الباريسي على رقبتي وخلف شحمتي أذني. ارتديت نظارة الريبان السوداء، وضعت الكمامة الصّحية على وجهي، حملت في يدي الأطروحة وملف التقرير، ثم خرجت على عجل.

كان الطّقسُ قيظًا قائظًا بشكل لا يمكن وصفه، أوقفت سيارة أجرة كي تقلني إلى الكلية التي تبعد مسافة

عشر دقائق بالسّيّارة، مع الازدحام والرّطوبة في محور دوران المستشفى وقبل محور دوران الجسر الأبيض تصبح المسافة أطول زمنيًا، صاحب سيّارة الأجرة يتصبب عرقًا، وتيشرته الأصفر شبه مبلل، مكيّف السّيارة مطفأ أو معطل بالأساس، بدأت أتعرق وأشعر بالضّجر. اتصلوا بي من الكلية يستعجلون قدومي. حالما وصلت، دخلت إلى البناية المقابلة لمكتبة الكلية، ثم صعدت الأدراج المؤدية إلى المدرج رقم تسعة.

استغرقت المناقشة ساعتين، هناك عضو معنا في اللجنة غائب بسبب إصابته بالفيروس، لذلك قررت الحضور، فعند غيابي تؤجل المناقشة إلى ما بعد عطلة الصّيف. فمن المفروض أن أسافر اليوم إلى المدينة التي أعمل بها لظرف طارئ مرتبط بالعمل. بعد ذلك، انتقلنا أنا وزميلي المشرف على الأطروحة إلى مكاتب متفرقة للإمضاء على وثائق، سمعت الزّملاء يتحدثون عن وفاة الإعلامي (ك)، المعروف في التلفزيون الرسمي، بعد إصابته بالوباء اللعين. هذا الإعلامي الذي اثني عليه قائد الأركان السابق «القايد صالح» أثناء فترة الحراك الشعبي، جراء تفانيه في خدمة النظام والعسكر، واستماتته في ترويج وجهات نظر السلطة الحاكمة. على الساعة الواحدة والنصف أوصلني زميلي أمام مدخل البناية التي أقيم بها. أول شيء قمت به حالما فتحت باب الشّقة، نزعت ملابسي، ثم دخلت للاستحمام. لاحقًا أكلت وشربت القهوة، ثم استلقيت كجثة هامدة على السّرير.

إلى أن سمعت رنين الموبايل، تحسست سطح

السّرير بحثًا عنه، حالما فتحته انتبهت لاتصال مدير مصلحة الموظفين بالكلية التي أعمل بها (السيِّد ميلود بوخناف)، كنت قد اتصلت به قبل نصف ساعة من دون أن يرد على المكالمة، كنت سأسأله عن إمكانية قدومي غدًا إلى الجامعة. بعد أن تبادلنا التّحية، أخبرني أنّه خرج في عطلة ولا يمتلك أدنى معلومة حول تواجد الموظفين بالكلية أم خروجهم اليوم في عطلة الصّيف (بعد أن خرج الأساتذة نهاية الأسبوع الماضي)، لما واصلت الكلام اعتذر مني بصوت متعب ومتحشرج بأنّه لا يقوى على الاستمرار في المكالمة، ثم أردف أنّه مصاب بوباء كورونا، كم كانت كلماته مفاجئة وكم آلمني خبر إصابته بالعدوى، إنسان طيِّب وخدوم ولا تفارق الابتسامة محياه. حالما قطعت الاتصال ولجت تطبيق الفايسبوك، تتالت أمام عيني صورة المرحوم (ك) على «ستوريهات» مئات «البروفايلات»، الكلّ حزين لهذا الرحيل المبكر لإنسان لطيف المعشر ومتواضع مع جلّ النّاس رغم مواقفه التي يعرفها الجميع. لا يسعفنا الموت كي نجدد حزن مضى، فبين وفاة وأخرى تبقى دموعنا طازجة، ولا تسعفنا اللحظة على سكب دموع جديدة.

يصلني من نافذة الغرفة صوت أذان العصر، وعلى شاشة التّلفاز تعرض قناة محلية برنامج عنوانه «مراسلون»، على فكرة اسم البرنامج ومحتواه وديكوره مسروقة بالكامل من برنامج مازال يعرض على قناة فرانس ٢٤، حتى طريقة جلوس، وكلام الصحفي، وملامح وجهه، وحركات جسده، تم السطوّ عليهم من تلك القناة الأجنبية، لا يجيدون سوى

الاستيلاء والسطو على مجهودات الآخرين دون بذل أدنى جهد! المشكل ليس هنا فقط، إنّما في التباهي في ذلك البرنامج بعرض روبورتاج عن وعدة نظمتها زاوية دينية بمدينة الجلفة، حيث ينظم إلى حلبة الرّقص النايلي المئات من كل الأعمار، دون مراعاة لأدنى إجراءات الصّحة والسّلامة، فمعد التّقرير كان سعيدًا جدًا بهذا التّلاحم وبتلك الحشود المتلاصقة في زمن الوباء!

السّاعة تشير إلى السّادسة إلا عشرين دقيقة بعد الزّوال، أقرأ خبر وفاة والدة الصّديق الإعلامي والشّاعر مراد بوكرزازة، أخبار الموت تترى بشكل جنوني، هل العالم مقبل على الفناء، هل هي قيامة أخرى! أي زمن نعيشه، هل نحن خارج الزّمان والمكان؟ الأمر لا يصدق، كابوس لعين زلزل كل شيء من تحت أقدامنا بعد أن كنا ننعم بالأمان والحياة. الجميع تحت الصدمة! هل الأرض أضحت مرتعًا للموت الذي ينكل بجثثنا وأشلائنا صباح مساء دون أن يوقفه أحد.

بعد ساعة قررت الخروج من الشّقة لاقتناء بعض المؤونة، أفكر في البقاء بالشّقة خلال الثّلاثة أيام المقبلة، أفكّر جديًا بعزلة قصيرة لصفاء ذهني المشتت بين التّوجس من انتقال العدوى وأخبار رحيل الأصدقاء والمقربين. لاحظت زيادة في عدد الناس الملتزمين بارتداء الكمامات الصحية بالشّوارع، بدأت أخبار الموت تؤثر فيهم. اعتاد أغلب النّاس على عدم المبالاة في التعامل مع مخاطر الوباء، وعلى الشعبوية والسطحية عند الحديث على الفيروس، واعتباره مجرد مؤامرة وإشاعة من صناعة الغرب، ولا وجود له على

أرض الواقـع، وأن التّطعيـم، حسـب اعتقادهـم، لـه تداعيـات تـؤدي إلى الوفـاة أو العقـم أو تتسـبب بعاهـات مسـتديمة كأقـل الأضـرار. مجتمع غـارق في الخرافة إلى حد الرّأس، مغلوب عـلى أمـره، مسـتكين ومستسـلم طوعًـا إلى المجهـول. الأمـر الذي فاقم الوضع أكثر، وعقد من إمكانية التّحكم في انتشار الـوباء، وجعـل منهـا مهمـة مسـتحيلة في الوقـت الرّاهـن.

17

٢٠٢١/٧/٢٦

أفقت في السّادسة والنّصف صباحًا، شعرت بالغرفة مختنقة من شدّة الحرارة، تحسست بيدي بحثًا عن جهاز تشغيل المكيّف، غطيت نصف جسدي باللحاف، مددت ساقيّ إلى أقصى طرف السّرير، تثاءبت، فتحت عينيّ، أغمضتهما مرة أخرى. فتحت ساقيّ وفرجتهما مثل الفرجار، ثم فكرت من أين يأتي الأمل ونحن في عز وباء كورونا المحوّر، من أين نجيء بالأفكار الإيجابية ونحن في حرب مع عدوّ لا يرى بالعين المجردة، ترى فقط عشرات الحفر المتراصة في المقابر تحفرها يوميا مجنزرات البلدية، تنتظر أمواتًا لا تقام لهم جنائز (إكرامًا لهم)، ولا يجدون من يودعهم عدا بعض أعوان الحماية المدينة يوارونهم الثرى باتباع بروتوكول صحي في الدّفن. عدوّ لا رائحة له سوى رائحة الخوف والموت التي تملأ المكان، ولا صوت له سوى دموع وأحزان من فقدوا أفرادًا من عائلاتهم. فمن لم يعش معنا هذا العصر، لن يعلم قطعًا بشاعة ما مررنا به، مهما قرأ لاحقًا، أو اطلع، أو سمع من أفواه من

عاصرونا. لا توجد وصفة جاهزة للتخلص من التّبعات والآثار النّفسية المدمرة التي جعلها هذا العدوّ اللعين من أبجديات يومياتنا، إنّنا نغيِّر من عاداتنا وسلوكياتنا وتصرفاتنا ونمط عيشنا باستمرار، تُغيّرنا الأزمات، الفيروسات، الهواجس، نحن مجرد ردة فعل لكل ما يحدث لنا.

بصراحة، أنا لا أحب فصل الصّيف، ولا أجدني أقوى على تحمل قيظه ورطوبته، ومع ذلك أحب عطلة الصّيف، طويلة بعض الشّيء ومريحة بعد عام شاق من العمل. الأيام الأولى من العطلة الصّيفية مرت ثقيلة ورتيبة، الجوّ مختنق بأخبار الموت، وأشعة الشّمس حامية وحارقة كما الحرقة المقيمة في نفوس من خسروا قريبًا، أو صديقًا، أو جارًا، أو زميلًا بالعمل. أتمنى أنّ الأمر سيكون مختلفًا في الأيام القادمة. الشّقة التي أقيم بها غير بعيدة عن البحر سوى ببضعة خطوات، ومع ذلك لم أنزل له من فترة طويلة. ولا امتلك الرّغبة لفعل ذلك قريبًا.

أبقى طيلة الوقت في الغرفة مستلقيًا على السّرير، غير مبالٍ، غير مكترثٍ. أفكر في قرارات اجتماع مجلس الحكومة البارحة، أين تقرر فرض الحجر الصحي على خمس وثلاثين ولاية/محافظة بالجزائر. أرغب في تدخين سيجارة نكاية في الوباء اللعين، رغم أنّني لا أدخن، ورئتاي معتلتان بعض الشيء.

السّاعة التّاسعة إلا عشر دقائق، نهضت من السّرير، أزحت السّتائر، فتحت النّافذة، تسرب ضوء النّهار إلى الغرفة، ملأت الكأس من قارورة المياه المعدنية، ارتشفت القليل

منه، عدت إلى السّرير مرة أخرى، استلقيت بكسل. أمسكت الموبايل، تصفحت قليلًا مواقع التّواصل الاجتماعي التي تعج بالحماقات والسطحية والتعازي. لاحقًا قرأت مقالًا حول آخر كتاب للفيلسوفة هيلين سكسو نشرته قبل أشهر دار غاليمار، حمل عنوان: «أطلال مصفوفة جيّدًا». مضت ساعة أخرى أو أكثر بقليل وأنا على السّرير، نهضت، غسلت وجهي ثم نظفت أسناني، تناولت فطوري لاحقًا، على شاشة التّلفاز طغت أخبار الجارة تونس على أخبار الوباء، فقد قام الرّئيس التّونسي قيس سعيَّد البارحة بتجميد البرلمان وحل الحكومة، انقسام الشّعب التونسي الذي خرج على بكرة أبيه إلى الشّوارع، علاوة على خروج قوات الأمن وانتشار الجيش التّونسي في بعض المناطق، ومخاوف من دخول تونس في دوامة من العنف والقفز نحو المجهول. هل «الاستثناء التّونسيّ» يتداعى، ويُعاد إنتاج التّسلّط في المنطقة العربيّة مرّة بعد أخرى، أم إنّ ما حدث بمثابة استرجاع البلد من قبضة نواب عاجزين أو بالأحرى من طبقة ديكتاتورية من السّياسيين الفاسدين، فضلًا عن تخليص الشّعب من حكومة فاشلة على جميع الأصعدة؟

السّاعة الواحدة زوالًا، شعرت بالجوع، دخلت إلى المطبخ لتحضير وجبة الغداء. طاجين الطّماطم باللحم والجبن والبيض والزّيتون، وآنية فاكهة العنب والكرز والموز. لا حقا تناولت الطعام وشربت القهوة مع كعك الكاكاو. وضعت حبة شكولاتة في فمي، ورجعت للاستلقاء على السّرير مجددًا. أخذت «الريموت كونترول»، انتقلت من قناة إلى أخرى، لم

اعثر على فيلم مناسب، وهكذا اكتفيت في النّهاية بمتابعة فيلم وثائقي عن يهود تونس من الغرانا إلى تل أبيب، وكيف تدرب اليهود الصّهاينة على القتال وحمل السّلاح في تونس استعدادًا للذهاب إلى القتال في فلسطين لتأسيس دولتهم هناك. وكيف تمت معاملتهم هناك بدونية من قبل اليهود القادمين من الغرب الذين كانوا رافضين لقدومهم من البداية، لولا أنّ بن غوريون استنجد باليهود العرب كبروليتاريا بديلية للبروليتاريا اليهودية المقيمة بالغرب والتي تبخرت في أفران النّازية.

السّاعة الرّابعة زوالا، يصلني الآن خبر آخر حزين عن صديق، المسكين لم يسعفه الوباء على استعادة أنفاسه من الصّدمة الأولى حتى صدمه من جديد في قريب آخر؛ فبعد فقدانه الأب الأسبوع الفارط، ها هو يفقد اليوم شقيقه. في زحمة هذه الأخبار تكتشف فجأة أنّك لا تريد أيّ شيء من هذا العالم الأعمى، فلا طعم للأشياء ولا رغبة لك بها أصلًا، فكلّ ما تريده في النّهاية هو أن تبقى هادئ البال معتدل المزاج وسط هذا الخراب والتّداعي الحر للإنسان على كوكب الأرض. من شدّة التّوتر والقلق بدأت أشعر بآلام حادة في ساقيّ، وأحس أيضًا بغصة في الحلق بسبب الملل والضّجر، وأشياء أخرى.

تشير عقارب المنبه فوق كومود الصّوَّر الفوتوغرافية المقابلة إلى السّاعة الخامسة زوالًا، جلست إلى الطّاولة البيضاء، شربت كأس حليب دافئ ممزوج بالشكولاتة، وتسليت بقرمشة مكسرات الجوز. تجولت بضجر بين البرامج التّافهة

والفارغة التي تعرض على شاشة التّلفاز، لم أجد أيّ شيء يستحق المتابعة. فتحت النّافذة جزئيًا، الطقس في الخارج مازال رطبًا وملتهبًا بشكل لا يطاق. أغلقتها دون أدني تفكير. لاحقًا عرفت من صديقي الفنان التّشكيلي محمد أكوح أصيل مدينة تطوان، مفارقات مؤلمة حدثت مع الفنان التشكيلي المغربي عادل الصّافي، إذ خطف الموت أخته آمال الصّافي صبيحة عيد الأضحى بفرنسا، ليلتحق بها والده صبيحة يوم أمس أثناء وصول جثمان ابنته. حيث تم تشييع جثمانيهما في نفس اليوم بمسقط الرأس، بعد صلاتي الظّهر والعصر على التّوالي. كيف نحافظ على رباطة جأشنا ونتمسك بالأمل ورائحة الموت تزكم أنوفنا، والخطر يحوطنا من كلّ الجهات، أضحت مدننا مجرد مقابر كبيرة، لا شيء غير انتظار دورنا في طابور طويل يمر على عجل ومن دون أن يسعفنا حتى لتوديع من نحب.

السّاعة السّادسة والنّصف زوالًا، أستبد بي الضّجر والملل. لم أقو على تحمل البقاء مسجونًا طيلة اليوم بالشّقة. قررت الخروج. سكبت الماء على وجهي، جففته بالمنشفة، غيرت ملابسي، وقفت أمام مرآة باب الرّواق، رتبت شعري، بعد ذلك استعملت جل مزيل العرق، ثم رششت العطر. أطفأت التّلفاز، راجعت قائمة المقتنيات الجديدة، أضفت لها بعض المستلزمات، تأكدت من وضع النقود في جيبي، جلست بعض الوقت على طرف السّرير ساهمًا في الفراغ. لاحقًا فتحت باب الشّقة وخرجت.

كان الجوّ في الخارج مضغوطًا جدًا، السّماء مغيمة

ورغم ذلك تأبى أن تمطر، بقايا الأوراق والعلب والقارورات على حواف الأرصفة، والشّوارع شبه خالية، وعربات فاكهة البطيخ والدلاع دون زبائن، حتى المتسولون غادروا أمكنتهم المعتادة. التقيت صديقي بمحاذاة سينما إفريقيا، تسكعنا في وسط المدينة، جل المحلات والمتاجر مغلقة، رجعنا أعقابنا إلى حي «لاكولون»، سلكنا إلى شارع عميروش، وواصلنا المشي إلى غاية شارع الشّيخ طاهر، ثم انعطفنا قبل محور دوران الجسر الأبيض، وواصلنا تقدمنا إلى حي «إليزا»، ثم إلى مفترق الطّرق الأربع في لاكولون، اقتنيت الخبز من المخبزة وبعض المقتنيات من السوبر ماركت، سار معي صديقي بضع خطوات أخرى، أين افترقنا بمحاذاة محور دوران مستشفى ابن رشد. واصلت طريقي دون أن ألوي خلفي.

حالما وصلت إلى الشّقة، أوّل شيء قمت به هو الدّخول إلى الدش لأخذ حمام يزيل عني العرق والتّعب. استلقيت على السّرير، على السّاعة العاشرة وربع تعشيت. بعد ذلك شاهدت فيلم (Black Mass). ثم بقي التّلفاز يشتغل لوحده وأنا مسمر أمامه كالأبله أحدق في الفراغ، كنت مسندًا ظهري إلى وسادة يدعمها الجدار من خلفي. السّاعة الآن تشير إلى الثّانية والنصف صباحًا، أطفأت ضوء المصباح الأرضي الطويل المسند بثلاثة أرجل خشبية. لاحقًا، غيرت القناة بحثًا عن أخبار جديدة عن تطوّرات الأحداث في تونس، بعد فرض الإقامة الجبرية على رئيس البرلمان التونسي رشيد الغنوشي (اتضح فيما بعد أن الخبر مجرّد إشاعة)، وفرض حظر التجوال، ومنع التّجمع لأكثر من ثلاثة أشخاص. السّاعة تجاوزت

الثّالثة إلا ربع بدقائق، ضغطت على زر توقيف تشغيل التّلفاز، وبعد ذلك ارتميت على السّرير، وحاولت أن أنام.

18

٢٠٢١/٧/٢٧

صحـوت قبـل السّـابعة صباحًـا، رجعـت إلى الفـراش المغـري، لمواصلـة النّـوم وسـط ظلمـة الغرفـة، بقيـت بـين الغفـوة واليقظة إلى غايـة السّـاعة الحاديـة عشرة إلا عشر دقائق، إذّاك راودتـني الكوابيـس، وآلام بالـرأس، وبعـض الإعيـاء. غسـلت وجهي بالماء والصّابون ثم نظفت أسناني، وبعد ذلك فركت الملابـس الـتي تركتهـا ليلـة البارحـة في إنـاء المـاء والغسـول.

تناولت لاحقًا الحليب الدافئ الممزوج بالشّكولاتة وخبز الدار بالزبـدة ومـربى الفراولـة، اسـتمتعت بوجبـة الفطـور المتأخـر. أحسسـت ببعـض التّعـب مـرة أخـرى، دخلـت إلى الـدش، أخـذت حمامًـا دافئًـا ومريحًـا، جففـت جسـدي بالفوطـة الزّرقـاء ذاتهـا. رجعـت إلى غرفـة النّـوم، السّـاعة عـلى عقـارب المنبـه تشـير إلى منتصـف النّهـار بالضّبـط، اسـتلقيت عـلى السّـرير ورأسي مسـتند عـلى وسـادتين، والأخبـار والتّحليـلات المنهمـرة لا تتوقـف عـن الأحداث الـتي تجـري في الجـارة تونس، بين مـن يصفها بالانقلاب

على الديمقراطية والدّستور والثّورة والحريات العامة والخاصة، وبين من يصفها بأنّها مجرد تدابير استثنائية لا تتعارض مع الدّستور، الغرض منها استعادة الرئيس سلطة الشعب من طغمة سياسيين ونواب ووزراء أوصلوا البلد والنّاس إلى وضع مهين وإلى المزيد من الاحتقان والتّشنج!

السّاعة الثّانية عشرة وعشرون دقيقة، اتصل بي النّاشر والروائي كمال قرور، أخبرني بأنّ طبعة أخرى من كتاب الصديق رابحي ستكون جاهزة قريبًا، وسيرسل له بعض النّسخ في غصون الأسبوع القادم، يا له من خبر مفرح؛ جاء بعد طبع نسخ محدودة في طبعة سابقة (قبل سنة وسبعة أشهر)، جراء الوضع الاستثنائي الذي عاشه الكتاب في عز الرحلة الأولى من الحجر الصحي. ما هي إلا هنيهات حتى رن الهاتف من جديد، في الجهة الأخرى من السّماعة أختي آسيا تسأل عن أحوالي، وإن كنت بحاجة لأيّ شيء. بعد أن طمأنتها أخبرتني أن العدوى بالفيروس أصابتها، وهي الآن تعاني من بعض الإرهاق والإعياء، وقد غادرتها حاستا الذّوق والشّم، لكن عمومًا (حسب تطميناتها) صحتها بخير وحالتها مستقرة مقارنة بالأخبار التي سمعتها عن مرضى آخرين.

بعد ساعتين تناولت وجبة الغداء، وعندما فتحت النّافذة لاحظت أن الطّقس في الخارج معتدل جدًا مقارنة بالأيام الفارطة، تمنيت لحظتها من كلّ أعماقي أن تزول موجة الحر الشّديد، حتى نستعيد أنفاسنا بعض الشيء. كما تمنيت أيضًا أن تزول معها موجة الوباء. رجعت إلى الطّاولة وأنا مازلت مشوّش البال، كنت أفكر في أفراد عائلتي المصابين

بالـوباء، عمـتي فضيلـة، أخـتي آمـال وآسـيا، وغيرهـم. هـل مـن الممكـن أن نسـتعيد ابتسـامتنا بعـد كلّ هاتـه المـآسي والانكسـارات؟ السّـاعة الآن تشـير إلى الثّالثـة وعـشر دقائـق، شرعـت في ارتشـاف قهـوتي، وفي قـراءة شريـط الأخبـار الأحمـر القـاني، كانـت الأخبـار العاجلـة تـترى حـول الوضـع المسـتجد بتونـس.

السّـاعة الآن تقريبًـا الثّالثـة والنّصـف زوالًا، أفكّـر في الرّجـوع إلى الاسـتلقاء عـلى السّرير. على الرّغـم من أنّ معنوياتي اليـوم أفضـل حـالًا مـن يـوم أمـس، إلا أنّـني كنـت بـين الحـين والآخـر أبقـى ساهمًا وعقـلي يشـتغل، إذّاك كنـت أردد في قـرارة نفسي: أضحـت مدننـا أشـبه بالمحتشـدات التي تضـم أناسًـا غـير متحضريـن (بمـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى)؛ هنـاك ردة كبـيرة في مجـال القيـم المدنيـة، فالمجتمـع يشـهد تراجعًـا رهيبًـا في مجـال الوعـي بتطبيـق إجـراءات الصّحـة والسّـلامة، واسـتهتارًا كبـيرًا بمخاطـر الفـيروس. صحيـح، لـم يسـبق وأن شـهدنا أو عاصرنـا قـط وباء أو مرضًـا لـه مثيـل بمـا نعيشـه اليـوم، لـم نختـبر وباء يفـرض علينـا مداومـة البقـاء في بيوتنـا، والـتزام روتـين بعينـه، مـا نعيشـه اليـوم هـو أسـوء سـيناريو لـم يخطـر ببالنـا مطلقًـا. الأصعـب الـذي يواجهنـا مـع مـرور الزمـن، هـو الاسـتمرارية، أو بالأحـرى كيفيـة البقـاء والوجـود مـع الروتـين والرّتابـة والضّجـر وحزمـة مـن الإجـراءات، وفي ذات الوقـت الرّهـان عـلى عـدم الإصابـة بالعدوى وديمومـة الحفـاظ عـلى الصّحـة والتّعايـش مـع السّـياق الجديـد الـذي فرضـه الـوباء؛ هـذا الـوباء امتحـن صبرنـا عـلى الإحجـام عـن عاداتنـا الاجتماعيـة في التجمـع بالآخريـن،

والتّمتع بالسّفر والاستجمام، اختبار صعب ضد أهم غرائز الإنسان إلحاحًا.

أخذت الموبايل، السّاعة على الشّاشة تشير إلى الرّابعة وعشرين دقيقة زوالًا، بدأت أمرر بأصبعي المنشور تلو الآخر، قرأت الآن خبرًا أثلج صدري؛ محافظ مدينة عنّابة يقرر غلق الشواطئ أمام المصطافين جراء انتشار الوباء بشكل متسارع. أخيرًا، منذ فترة طويلة لم أسمع قرارا صائبًا، أن يأتي القرار متأخرًا خير من أن لا يأتي أبدًا. تركت الموبايل جانبًا، وأخذت الريمود كونترول، عثرت على فيلم (K-PAX)، حاولت أن أشاهده علّني أخرج بعض الشيء من الحالة العبثية التي أدخلنا فيها الوباء.

مازلت في الشّقة، أتابع الآن فيلمًا آخر (فيلم Kin)، وأقرمش كعك التّين مع كأس من الحليب، السّاعة في هذه اللحظة تشير إلى السّادسة وأربعين دقيقة زوالًا. لاحقًا خرجت من الشّقة، بالضّبط على السّاعة السّابعة والنّصف زوالًا. تمشيت إلى غاية الكورنيش أين وقفت متأملًا الأمواج في غدوّها ورواحها، مستمتعًا بصوت ارتطامها بالشّاطئ، وبالنّسمات البحرية التي تلاعب سيقاني. سيّارات الشّرطة تظهر من حين لآخر، وحركة النّاس لا تكاد تتوقف، زرافات ووحدانًا، لم يتم حظر التّجوال، عدا السّباحة أو النّزول إلى الشّاطئ تم منعهما. قبل أن أغادر وصلت إلى مسمعي أصوات من الشّاطئ، نظرت اتجاه مصدر الجلبة، انتبهت لوجود خمسة فتيان في سن المراهقة داخل الماء يسبحون، غير مبالين بالعقوبات وبمآلات وتبعات سلوكهم رغم قرار

المنع، سمعت بعض البذاءات والشّتائم والصّرخات والجلبة، لا شرطة جاءت لإيقافهم عند حدهم ولا هم يحزنون، فقط يطاردون ويعتقلون الشّباب الذين يعبرون عن رأيهم بطريقة حضارية وسلمية، ففي عز كورونا تمتلئ السّجون بمعتقلي الحراك الشّعبي. ومن الأعلى هناك (على شمالي) من يلتقطون لهم صورًا، لتوثيق اللحظة، ونشر الصور على وسائل التواصل الاجتماعي. على السّاعة التّاسعة وخمس دقائق ليلًا قفلت راجعًا إلى الشّقة.

19

٢٠٢١/٧/٢٨

حينما أفقت مددت يدي اليمنى تلقائيًا، متحسسا سطح السّرير. حالما عثرت على الموبايل فتحته، تشير السّاعة على شاشته المضيئة إلى السّادسة صباحًا، يا إلهي مازال الوقت باكرًا. دفنت وجهي في اللحاف، وضعت رأسي على الوسادة مجددًا وأغمضت عينيّ محاولًا استئناف النّوم. إلى أن صحوت مرة أخرى في السّاعة العاشرة وعشر دقائق.

فتحت ستائر النّافذة الخارجية والداخلية، تدفق النّور إلى الغرفة. غسلت وجهي. نظفت أسناني. وضعت علبة مربى الفراولة والزبدة والخبز المقطع والحليب الدافئ بالشكولاتة على صينية الطّعام. جلست إلى الطّاولة، فتحت زجاج النّافذة قليلا، الجوّ في الخارج ساخن جدًا. بعد ذلك، هممت بتناول الفطور، لاحقًا، تذكرت بأنّني في عطلة الصّيف، عاودت التّفكير في الحالة العبثية التي تعقدت بشكل جنوني منذ يوم خروجي في عطلة، الكلّ يخشى من انهيار أعصابه، الوضع صعب جدًا ولا يحتمل،

والطّرف قاهر ومدمر، باتت غرف بيوتنا بفعل الخوف والهلع من الإصابة بالعدوى أشبه بالزّنزانات، وأضحت دولنا جراء استمرار غلق الحدود وتوقيف حركة النّقل في المطارات أشبه بالسّجون. لا يوجد غير الفراغ، ولا شيء يملأه على وجه الإطلاق، حتى الكتابة استعصت، والقراءة لم يعد لها طعم، فقدت الشّهية والرغبة في القيام بعدة عادات كنت أراها جميلة وممتعة فيما مضى، ومع ذلك أصبحت أبحث عن أيّ شيء لأتسلى به، حفاظًا على وجودي وبقائي وسلامتي العقلية في مثل هاته الأوقات العصيبة. عندما أنثني في زاوية الغرفة، حتى ذاكرتي تخذلني، لا تسعفني بتلك اللحظات والذّكريات الدّافئة والجميلة، القريبة أو البعيدة، أعيش حالة صعبة لم أعهدها من قبل، محبطة ومدمرة لكلّ خلية بقيّت سليمة. ومع ذلك أحاول أن أتحايل على واقع الحال، صارت الكوابيس المزعجة لا تأتيني بالليل فقط، فكلما انزويت في مكان أو سهوت تراودني كوابيس اليقظة، أجدني مفزوعًا رغم عزلتي الاختيارية والقهرية في الوقت عينه.

السّاعة الثّالثة وتسع دقائق زوالًا، فرغت من تناول وجبة الغداء قبل نصف ساعة، ارتشف الآن من فنجان القهوة وأقضم من كعك القرفة، وبين الحين والآخر آكل حبة كرز وقطعة صغيرة من الموز وحبة جوز من الصحن الخزفي على الطّاولة، وفي ذات الوقت أتابع في فيلم (Tracers)، سبق وأن شاهدته، مضى وقت طويل على ذلك، ومع ذلك ها أنذا أعيد متابعته لملء بعض فجوات الزّمن الثّقيل ورتق ثقوبه الموغلة في تذكيرنا باستمرار بالوحدة والضّجر اللذين يحوطاننا من كلّ الجهات في زمن الوباء.

أحدق في المنبه على الكومود البنية اللون، تشير عقاربه إلى السّاعة الرّابعة إلا ربع، أقف أمام النّافذة، يتراءى لي من

خلف زجاجها منظر المدينة من عل، وجسدها تحت شمس يوليو السّاطعة والملتهبة، أتنفس ملء رئتي، وأستلقي على السّرير لمواصلة متابعة الفيلم.

السّاعة الخامسة وست وثلاثون دقيقة زوالًا، حالة انفلات وشيكة بعد الموجتين الأولى والثانية من الوباء التي عشنا مرارتهما طيلة أيام العام الماضي، فعدد الإصابات الجديدة لنهار اليوم (تصاعدت بشكل يثير المخاوف والهواجس من المجهول)، المعلن عنها الآن على الشريط الأحمر للأخبار العاجلة؛ تجاوزت ١٩٢٧، مع تسجيل تسعة وأربعين وفاة. طبعًا، هذه الأرقام الرّسمية فقط، الأرقام على أرض الواقع أضعاف مضاعفةً، فأغلب من يصابون بالعدوى يكتفون باقتناء الأدوية من الصيدليات، والبقاء بمنازلهم دون التّصريح للجهات الصّحية القريبة منهم. يخفون الأمر، ويتحرجون من الإعلان عنه أمام الآخرين، حتى أنّ منهم (المصابين بأعراض طفيفة) من يواصلون حياتهم العادية ويختلطون بالنّاس كأنّ شيئًا لم يكن، دون أن يأبهوا حتى بمخاطر نقل الفيروس المميت إلى الآخرين. موجع جدًا أن تعاصر هذه اللحظات القاسية من التّاريخ البشري، أن تكون جزءًا منها، أين تسمع استغاثات النّاس المتتالية، يبحثون عن واسطة للفوز بسرير في مستشفى معين، أو يعلنون عن حاجتهم القاهرة إلى قارورة أكسجين، بينما الكلّ عاجز عن مد يد المساعدة، بما فيهم أنت. طبعًا لا أحد سيولد بعد هذا الوباء اللعين ويتمنى أن يتكرر حدوث الأمر، أو أن يعيش مثل هذا الظّرف على وجه الإطلاق. أما من عاشوا هذه الظّروف العصيبة، فالزّمن وحده كفيل بجعلهم ينسون بعضًا منها فقط، أما الأجزاء المتبقية فتحتفظ بها ذاكرتهم بصمت ووجع.

السّاعة السّادسة وخمسون دقيقة زوالًا، خرجت من الشّقة. حالما عبرت بمحاذاة حديقة الحرية انتبهت إلى حشود الأطفال هناك، الأمر الذي أثار استغرابي. يا إلهي تم تركيب مدينة ملاهي للأطفال في عز الوباء، يغلقون الشّواطئ ويفتحون ثغرات أخرى لتفريخ الفيروس. واصلت تقدمي، أغلب المقاهي والمطاعم التي مررت بها تخلت عن الكراسي والطّاولات، عدا البعض منها حافظ عليها منصوبة كسابق عهدها مع فرض احترام التّباعد الجسدي بين الجالسين إلى الطّاولة الواحدة، وبين الرّواد في الطّاولة والأخرى، على أساس التّظاهر باحترام البروتوكول الصّحي، ليس امتثالًا للقوانين والقرارات المتخذة، بقدر ما هو خوف من العقوبات المحتملة أو خشية من المساس بمصدر الرّزق. فضلًا عن ذلك، ما زالت شوارع المدينة تعج بالمساحات التجارية الفوضوية المكتظة على آخرها بالحشود، فضاءات موازية؛ خاصة تلك المتواجدة بمحاذاة سوق الحطاب، أو بحي واد الذّهب (جبانة اليهود)، أو بساحة جورج إسحاق (أو ساحة أليكسيس لومبير كما يطلق عليها ساكنة المدينة)، أو بشارع ڤومبيطا، أو في ساحة الثّورة، وغيرها. وما تشهده تلك الفضاءات من اكتظاظ رهيب لا يراعى فيه التّباعد ولا الالتزام بارتداء الكمامة الصّحية واستعمال جل التّعقيم.

مضت ساعة كاملة مذ خروجي من الشّقة، شعرت بالحرارة ارتفعت وبالتّعرق على جبيني، درجة الرّطوبة الآن في أوجها. استرحت قليلًا على مقعد انتظار الحافلات في حي البوسيجور، حركة المشاة والسّيارات أقل بكثير مقارنة

بالأيام الماضيـة، هـواء سـاخن يلفـح سـاقيّ، لاحقًـا أحسسـت بحكـة في أصابـع يـدي وفي سـاقي اليـسرى، لدغتـني حـشرات أشـجار ونباتـات حدائـق الفيـلات القريبـة. بصراحـة الجـوّ مختنـق ولا يطـاق. أفكـر في أن أرجـع أدراجي.

20

٢٠٢١/٧/٢٩

أن تنهض من نومك في الخامسة صباحًا أو عند منتصف النّهار، سيّان في زمن الحجر. كالعادة، أفقت في الخامسة وسبع دقائق، ثم استأنفت النّوم إلى غاية الثّامنة وربع. قمت بكل طقوسي المعتادة على أكمل وجه، أضفت لها مضمضة قصيرة بسائل معالجة اللثة، ولاحقًا خرجت، انتبهت أنّ عقارب السّاعة على معصمي تشير إلى التّاسعة وسبع وخمسين دقيقة. في الخارج درجة الرّطوبة أقل من أمسية البارحة بشكل طفيف، ومع ذلك أفضل حالًا بكثير، النّاس في غدوّهم ورواحهم قلة مقارنة بأعدادهم المعتادة في مثل هذا الوقت من النّهار (في الأيام السالفة)، نسبة معتبرة منهم ترتدي الكمامات، عدا التّجار غير الشرعيين وباعة العملة الصعبة في السّوق الموازية لا أحد منهم يضع على وجهه كمامة إطلاقًا. كنت كلما أمر بهم أستغرب؛ لمن يبيعون عملتهم الراكدة؟ فالحدود

مغلقة، والسفر الدولي محظور، فمن يشتري بضاعتهم!؟

قررت زيارة أبي، سبق وأصيب بالعدوى صيف العام الماضي (عند الموجة الأولى من الوباء)، وتماثل للشفاء، وها هو اليوم رغم إلحاحي ونصحي يضرب كلّ ذلك عرض الحائط! اتصلت به قبل يومين، تفاجأت أنّه سيزور فردًا من العائلة تعرض لحادث مرور، وسيحضر حفل خطوبة، ويزور شخصًا آخر لتهنئته بنجاح ابنه في شهادة البكالوريا. طبعًا رجوته أن لا يفعل، ومع ذلك ركب رأسه وفعل كل ما يريد وأكثر! لا سلطة لنا على الآباء. الفيروس تحوّر، وهناك أناس اعرفهم، أصابتهم العدوى للمرة الثّانية، وهم يعانون مع أعراض مضاعفة وأكثر فتكًا (سلالة دلتا الهندية)، مقارنة بما سبق وخبروه.

عدت أدراجي إلى شقتي، الجوّ أشبه بقطعة من الجحيم سقطت سهوًا على كوكب الأرض، قيظٌ قائظٌ ورطوبة خانقة، كنت أتصبب عرقًا في الطّريق، وجسدي مبلل بالكامل، فضلًا عن ذلك، المدينة اليوم غارقة في القمامة بعد إضراب عمال النّظافة. وصلت إلى شقتي على السّاعة الثّانية ونصف زوالًا، تخلصت من ملابسي وأخذت دشًا منعشًا، جففت جسدي، شربت قهوتي، وقارورة مياه معدنية كاملة، وأكلت قطعة آيس كريم فانيلا. وبعد نصف ساعة استلقيت كجثة منهكة على السّرير. على الشّاشة يعرض فيلم (Hulek)، لم أكن أستسيغه قط، ومع ذلك لم أغيّر القناة. السّاعة الرّابعة وثمان دقائق، لم ينته الفيلم بعد، أشعر ببعض الملل، أبحر في الفضاء الأزرق، أقرأ خبر إصابة الصّديق السّوري المقيم

بالجزائر مروان ناصح بالوباء، من خلال ما نشره على صفحته الخاصة: «صباح الخير والمحبة لكلّ الأصدقاء. هذا هو اليوم الرّابع عشر لصراعي الخطير مع الكورونا.. والحمد لله على كل شيء.. والمعذرة لعدم قدرتي على التّواصل معكم.. حماكم الله من كل مكروه». هناك صديقة أخرى من ولاية تيزي وزو سبق والتقيت بها قبل أشهر في حفل توقيع روايتي زنقة الطّليان، نشرت أيضا على صفحتها على الفايسبوك الرّجاء التّالي: «ليس لي طلب منكم سوى الدعاء لأبي الذي يحتضر». أخبار الوباء تُخيِّم على كلّ شيء، الأمر أشبه بحياة مع وقف التّنفيذ.

وصلتني رسالة جديدة من الشاعرة والإعلامية (س)، تطلب رأيي في عنوان مجموعتها الشّعرية الجديدة، أتذكر من أيام أرسلت لي عنوانًا مقترحًا حول: «مغادرة العشبة للبحيرة»، صارحتها بأنّني لم استسغ هذا العنوان، وأخبرتها أن البحيرات بأوربا ودول أخرى، وأن عليها أن تجد عنوانًا له دلالات بالمكان والمضمون في الوقت عينه، وأن هذا العنوان أراه ثقيلًا، ومقحمًا، ولا علاقة له بالمكان؛ لعنّابة بحر وجبل وسهل. ومع ذلك أصرت ككل مرة (بعد أن ترسل لي اقتراحا جديدًا لا أوافقها الرأي فيه)، أن تعود لذات العنوان مع إضافة كلمة أو تغيير كلمة مغادرة بهجرة، أعتقد أن لوثة جنون أصابت عقلها! صحيح أنّ هناك لوحة شهيرة للفنان إدوارد مانيه، اسمها «الغذاء على العشب»، فضلا عن رواية حيدر حيدر عن عنّابة بعنوان: «وليمة لأعشاب البحر»، لكن مازلت متمسكًا برأيي الأوّل، إذ لا أعتقد أن عنوانها المقترح

مناسبًا بالمرة.

السّاعة على شاشة موبايلي تشير إلى الخامسة والرّبع زوالًا، عليّ أن أتصل لأسأل عن صحة عمتي المصابة بالوباء. الموبايل يرن وهي لا تجيب، أتمنى أن تكون بخير، ممكن تكون نائمةً أو متعبة لدرجة لا تقوى على رفع السّماعة، سأكرر الاتصال بها لاحقًا للاطمئنان عنها، أو بالأحرى سأتصل بابنها منير، يبدو أنّه تعافى من الوباء. لما كلمته وجدته عند الصيدلية، يقتني في الأدوية، طمأنني على صحته، وأنّه تماثل للشّفاء عدا أعراض حالة الإعياء والإرهاق، مازال لم يخرج منها، علاوة على ذلك طمأنني على صحة عمتي المستقرة حاليًا، مع زوال الحمى المرتفعة التي صاحبتها الأيام الماضية، الحمد لله، أخبار مطمئنة وتثلج الصّدر. وصلتني الآن مكالمة من عمتي، قطعت، وأعدت الاتصال بها من موبايلي؛ مازال صوتها خافتًا ومتعبًا، والحمى انخفضت تدريجيًا، هي منزعجة جدًا من حرارة الجوّ، خصوصًا وأنّها لا تقوى على تحمل تشغيل المكيف، يسبب لها جفاف الحلق والأنف. عمومًا لم أرغب في أتعابها أكثر بمواصلة المكالمة، لذلك ودعتها وتمنيت لها الشفاء العاجل، ووعدتها بأنني سأزورها في أقرب وقت ممكن، حالما تتماثل للشّفاء.

لاحقًا خرجت من الشّقة، السّاعة السّابعة والنّصف بالضّبط، هناك نسمات هواء شحيحة، ومع ذلك الجوّ مختنق. وصلني الآن خبر وفاة عمي سليمان، الرجل من أقدم تجار مدينة عنّابة العتيقة، صاحب أعرق مكتبة تبيع الكتب والجرائد والمجلات والأدوات المدرسية بحي «إليزا»، كنت اقتني من

مكتبتـه الضّيقـة والمليئـة عـلى آخرهـا مجلـة العـربي، والجيـل، والفيصـل، وغيرهـا مـن المجـلات، كان هادئًـا، لا يكـثر الـكلام، متفانيًا في عمله، يحسن معاملة زبائنه. ألف رحمةٍ ونورٍ على روحـهِ.

21

٢٠٢١/٧/٣٠

أفقت باكرًا، كنت مكبلًا بالكوابيس. الغرفة مظلمة، كنت بين اليقظة والنّوم، أرى عالمًا آخر. لا أعرف بالضّبط ما حلّ بي، كنت بين الوعي واللاوعي وسط تلك الكوابيس! بين الجثث والأشلاء، وبرك من الدّماء. فجأة رأيت طفلًا يبكي في الشّارع وهو مكوّر على نفسه، غير بعيد كثيرًا عن شاحنة متوقفة عند الرّصيف في ناصية الشّارع، بعد ذلك لمحت كهلًا لا تظهر كلّ ملامح وجهه عدا أنفه المعقوف، وشارة قرمزية أعلى جبينه، وعينيه الجاحظتين، كان بمساعدة طفل آخر يمده بخرطوم الماء الطّويل، يحاول إجبار الطّفل الأوّل على الخضوع إلى حمام في الهواء الطّلق، الماء يتدفق من الخرطوم بضغط عالٍ، مما تسبب في حشر الطّفل إلى عجلة الشّاحنة الكبيرة، كان الطّفل في البداية يتخبط ويصرخ، فجأة تلاشى صوته في العدم وفقد السّيطرة على حركاته، إلى أن أصبح كورقة يلعب بها الماء.

الساعة العاشرة وخمسون دقيقة، استفقت من جديد، كنت أفكر باستغراب في الحالة العبثية التي وجدتني فيها، أرى الكوابيس وأعدِّل درجة حرارة مكيِّف الهواء في الوقت عينه!

أمارس عاداتي الصّباحية وأنا أفكّر في البحث عن فيلم فيه شيء من العزلة والغرائبية غير السّحرية طبعًا، علّني أخرج بعض الشيء من المناخ المحبط. أعثر على فيلم (Min's Island)؛ فتاة صغيرة في جزيرة نائية برفقة والدها عالم الأحياء البحرية، تتواصل مع روائية تعاني من رهاب الخروج والتّعامل مع الناس، ظنًا منها أنّها تتواصل مع بطل رواياتها. بعد مغادرة والدها إلى مكان آخر لأجراء بعض الأبحاث، تقع تلك الفتاة في ورطة كبيرة تستنجد بالرّوائية اعتقادًا منها أنّها بطلها المعروف الذي لطالما قرأت عن مغامراته في صفحات الكتب، بعد أن باءت كل محاولات الرّوائية في طلب النّجدة بالفشل، تقرر على مضض خوض مغامرة السّفر آلاف الأميال لمد يد العون للفتاة الصغيرة. وهكذا تستمر أحداث الفيلم أين تبدأ قصة أخرى بين الكاتبة والعالم.

مازلت أستغرب إلى غاية اللحظة تبريرات بعض العامة والدّهماء، ممن ساهموا في صب الزّيت على نار حرق الفيروس للأخضر واليابس، لست أدري أأضحك أم أرثي الحال التي أوصلونا إليها؛ يخبرني جار أبي أن أحدهم رفض رفضًا قاطعًا إجراء التّلقيح ضد الفيروس، مبررًا إحجامه بأنّه عند التطعيم تغرز في ساعده الأيمن شريحة إلكترونية، تمنح الأمريكيين القدرة على التحكم به عن بعد! في حين أن الرّجل

صاحب الأربع والأربعين سنة كما يردف الجار، زوجته تتحكم في حركاته وسكناته مذ أكثر من عشرين سنة. وقد سمعت أيضًا أنّ هناك من يؤكد بأنّ التّلقيح يتسبب في نموّ شعر الذّقن والشّوارب للنّساء!

السّاعة الثّانية عشرة وثلاثون دقيقة من منتصف النّهار، ها هو صوت الإمام في خطبة الجمعة يصل إلى كل البيوت، وهو يصدح محذرًا من خطورة الفيروس، ويوصي باتباع الإجراءات الصّحية لسلامة النّسل البشري من الانقراض. ويدعو ويرجو، متضرعًا الله: الشفاء وصرف البلاء والوباء، وغيرها.

اليوم ٣٠ جويلية يصادف اليوم العالمي للصّداقة، هل مازالت هناك صداقات حقيقية في زمن الحجر والوباء؟ وماذا بقي من ذلك الزَّمن الجميل؟ أصدقاء منهم من غادرنا إلى ديار الغربة أو من قذفت بهم الحياة بعيدًا عنَّا، ومنهم من غادر دنيانا إلى غير رجعة. أحيانًا نتشبث بالوهم، نقيم معارف جديدة، لنقنع أنفسنا بأشياء مستحيلة الحدوث!

أخرجت من الثّلاجة بطيخة فاسدة، وحزمة بقدونس وكرفس ذابلة، ثم انشغلت بطهو اللحم مع الخضروات، وتحضير آنية العنب والكرز والموز، والعصير. لاحقًا تناولت وجبة الغداء، وبعدها استمتعت بارتشاف القهوة مع كعك القرفة ومكسرات الجوز، كان التّلفاز يشتغل من دون أن آبه لما يعرض من برامج. السّاعة الرّابعة وأثنتا عشرة دقيقة يصلني خبر وفاة زوجة خال شخص من معارفي، أخبرني أنها حامل بتوأم، ولم تمض سنة على زواجها.

السّاعة السّابعة والنّصف زوالًا، بقيت طيلة النّهار مسجونًا بالشّقة، حبيس الضّجر والملل وتراكم الأخبار السّيئة والمحبطة، لحد اللحظة لم أخرج بعد، ولا امتلك أدنى رغبة في لقاء أيّ كان. لاحقًا انتبهت إلى الكتاب الذي ظلّ لأيام طويلة مهملًا، تارة أضعه على الطّاولة، وطورًا على الكرسي، ومؤخرًا على السّرير. ومع ذلك قررت أن أكسر إحجامي عن القراءة (الذي استمر فترة طويلة)، فجأة وجدتني أمسك بالكتاب، أفتحه، وأهم بقراءة ما تيسر من صفحاته. السّاعة الآن التّاسعة وثلاث دقائق ليلًا، فرغت من القراءة، أشعر ببعض التّحسن، والسّكينة، والهدوء الدّاخلي مقارنة بما كنت عليه. وليست لديّ أدنى فكرة الآن عما سأقوم به لتزجية الوقت. مازال عندي أكل جاهز يكفي للعشاء، ومع ذلك فكرت في الاكتفاء بتناول الفواكه مع كأس حليب من الثلاجة.

22

٢٠٢١/٧/٣١

أفقت على السّادسة صباحًا، وبقيت متكاسلًا في الفراش إلى غاية الثّامنة وخمسين دقيقة. اليوم عليَّ كتابة مقال سردي لموقع عربي، من المفروض أن اكتبه البارحة وأرسله إلى رئيس التّحرير، الرّجل أرسل لي رسالة قبل البارحة على بريدي الالكتروني مجددًا دعوته:

«العزيز بومدين

أرغب بالفعل بالتعاون معكم للكتابة للموقع،

وأرجو أن تكون الرغبة متبادلة.

بانتظارك صديقي».

كان مبرمجًا أن أتعاون مع هذا الموقع العربي قبل شهر من الآن، تعثر الأمر في بدايته جراء خط تحرير الموقع، وكذلك حاجتهم إلى مساهمات في موضوعات ومحاور بعينها، وبقيت خلال تلك الفترة تقريبًا متكاسلًا وعاجزًا عن إرسال أيّة مساهمة.

نهضت مترنحًا، فتحت ستائر النّافذة، وضعت

الموبايل على الشّاحن. دخلت الحمام. لما وقفت أمام مرآة الحمام انتبهت إلى شعر وجهي قد نما أكثر من اللزوم، فتحت صنبور الماء، غسلت وجهي. بعد ذلك نظفت أسناني، جففت بالفوطة. تناولت فطوري. أخرجت الحاسوب من الخزانة، شغلته، وشرعت في الكتابة. السّاعة الحادية عشرة وعشر دقائق، توقفت عن الكتابة، أغلقت الحاسوب، وبعد ذلك فتحت رزمة ملفات. حينما انحنيت لالتقاط ورقة سقطت من يدي، أحسست بضربة قاصمة أسفل ظهري، ألم فظيع، كأنّ فقرة في عمودي الفقري تحركت من مكانها. حاولت أن أستقيم من دون القيام بأيّ حركة خاطئة، قد تسبب لي ألمًا مضاعفًا أنا في غنىً عنه، ثم تمددت على السّرير.

السّاعة منتصف النّهار وربع، أقرأ خبرًا على موقع روسيا اليوم، يضاف إلى جملة الأخبار السّيئة التي تطالعنا بها الصّحف ومواقع القنوات، حول رصد بؤر تفشٍ جديدة للفيروس اليوم السّبت في منطقتين جديدتين في الصّين بعد زوال الوباء. المخيف أن صاحب المقال يؤكد أنّ ذلك بمثابة موجة جديدة من فيروس كورونا تعد الأسوأ بعد ووهان. خبر مقلق أعاد إلى ذهني صور تلك المرحلة العصيبة التي عاشها العالم ككل طيلة أيام العام الماضي، أين فقدنا عشرات الملايين من الأرواح جراء الموجة الأولى من الوباء.

السّاعة الثّالثة زوالًا، لم أستطع تحمل البقاء بين جدران الشقة أسيرًا للملل والضّجر، فمن يوم الخميس الماضي لم أخرج. قررت الفرار بجلدي، أشتاق لدفء أشعة الشّمس وللاستماع باستنشاق الهواء النّقي، أرغب في استعادة

نشاطي وحيويتي ورغبتي في التّمتع بالحياة. على الأقل أتمكن من تجديد أنسجة وخلايا جلدي وتعزيز مناعتي، وأتخلص من حالتي المزاجية، المحشورة بين مطرقة التّوجس من الإصابة بالعدوى بالفيروس، وسندان الاكتئاب والتّوتر المصاحبين لذلك.

بقيت للحظات أستمتع بتدفق الماء العذب على جسدي المتعب والمثقل. ارتديت ملابس قطنية خفيفة، استعملت جل مزيل العرق، ورششت من العطر الباريسي. السّاعة الثّالثة وثمان وأربعون دقيقة، خرجت. الهواء ساخن في الشّارع. الشّوارع الفرعية والرّئيسيّة التي مررت بها فارغة من الناس والسّيارات، عدا قلة قليلة منهم، أصحاب المتاجر، والباعة المتجولين، وأصحاب عربات التين الشوكي، والخضروات، والفواكه، وأصحاب بسطات النّباتات المنزلية، والعصافير، والتّوت البري. وبعض النّاس، ومجموعات صغيرة من المراهقين والمشردين، وبعض الأطفال الأفارقة (من النيجر ومالي) يتسولون أصحاب السيارات على قلتهم عند نقاط التوقف. وعند مدخل حديقة الحرية تصل إلى مسمعي أغاني طيور الجنة من ملاهي ألعاب الأطفال المنصوبة مؤخرًا. القمامة والأوساخ متناثرة على الأرصفة والطّرقات وفي كلّ مكان، مازال إضراب عمال النّظافة متواصلًا، ومازال هذا البلد مصرًا على أن يستنزفنا إلى آخر رمق.

السّاعة الثّامنة وثلاث وعشرون دقيقة ليلًا، تلقيت اتصالًا من صديقي رابحي قبل هنيهات، أخبرني أنه سينتظرني عند محور دوران سوق الحطاب. أوقفت سيارة أجرة كي تقلني

إلى عين المكان. تسكعنا في شوارع المدينة بلا هدف محدد، لا شيء جديد، الأجواء التي كتمت أنفاس المدينة مازالت على حالها، الوجوه متعبة ومتوجسة، الخطوات مثقلة، والرّطوبة مرتفعة إلى حد لا يطاق.

23

٢٠٢١/٨/١

الأيام تتالى بمتتالية رتيبة وعبثية. الهواجس تستحيل إلى أحلام وكوابيس مزعجة ومخيفة. أن تستيقظ أو أن تنام، فالأمر سيّان وسط تراكم أخبار الوباء المفجعة والمرعبة. التهم الفيروس كل المسرات ومصادر الفرح الصغيرة، وأضحى الأمل أو انتظار بقعة ضوء وسط الظّلمة وتلاحق فجائع المصابين وعدد الأموات عملة نادرة في نفوس النّاس. لا شيء في الأفق القريب أو المتوسط يوحي بانفراجة ولو طفيفة!

صحوت.

غفوت مرة أخرى.

أفقت.

أكلت.

خرجت.

ركبت.

ترجلت.

رجعت أدراجي.
دخلت.
نمت.
في النهاية لا شيء يستحق.

عزمت اليوم على التّوقف عند هذا الحد. ومع ذلك واصلت الكتابة. الكاتب في منطقتنا «يكتب بنصف قدرته» كما يقول صديقي رابحي، في النّهاية هو يعيش في مناخ موبوء، تشويش من كل حدب وصوب، من أسرته، ومن المقربين والبيئة المحيطة (التشريعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية). فالسّياق العام ككل يقف كحجر عثرة، الكتابة هي فعل مقاومة بالأساس، لكلّ تلك الاكراهات وأكثر!
عند الموجة الأولى من الوباء كنت أسمع بالأموات كأرقام، تعلن عنها وزارة الصحة عند نهاية كلّ مساء، مع هاته الموجة الأكثر خطورة وفتكًا (دلتا الهندية)، علاوة عن الأرقام الرسمية المعلن عنها يوميًا، اسمع عن أموات من المحيط الذي أعرفه، سواء كان قريبًا أو بعيدًا. الأموات خلال هاته الأيام لهم أسماء وألقاب وعائلات، وليسوا مجرد أرقام. كلّ يوم جديد نفقد قريبًا، أو عزيزًا، أو جارًا، أو زميلًا...
السّاعة الثّامنة وثماني عشرة دقيقة ليلًا، موبايلي يرن، اتصال من صديقي وزميلي زرفة... للموت رهبة ومهابة، الأخبار السّيئة لا تتوقف، خبر صاعق آخر، تجمدت الدّماء في عروقي عند سماع خبر فقدان العزيز ميلود بوخناف، رئيس مصلحة الموظفين بالكلية. يا إلهي الأحد الماضي اتصلت به،

كان صوته مرتعشًا ومتحشرجًا، بالكاد يقوى على التّنفس، اعتذر مني بأدب جم عندما أخبرني بأنه أصيب بالعدوى.. اليوم بعد أيام فقط من حديثي معه، يرحل باكرًا من دون وداع حتى، رجل نبيل وأصيل. عندما كنت ادخل إلى مكتبة كان يستقبلني بمحبة، دومًا باسم الثغر مع الجميع، هادئ وخدوم، جميل الشّكل والهندام والرّوح أيضًا، من القليلين الذين يمنحونك جرعة أمل كي تستمر في العمل في مناخ موبوء، دعوته قبل فترة إلى زيارة مدينتي عنّابة، ووعدته باستقباله والتّجوال معًا في أماكن لم يسبق وأن وطأتها قدماه. ها هو يترجل اليوم في صمت، تبًا للفيروس اللعين سرق منا كلّ شيء جميل.

24

٢٠٢١/٨/٢

أفقت في السّاعة العاشرة وربع، الآلام أسفل الظّهر أقل حدة مقارنة بليلة البارحة، لم أتردد طويلًا بالفراش، حاولت الوقوف من السّرير بالطّريقة الصّحيحة، تفاديًا لأيّ حركة تلقائية قد تضاعف من الأوجاع. إذّاك وقفت باستقامة. استحممت. فركت أسناني بالفرشاة. جففت جسدي بالفوطة الزّرقاء. تناولت فطور الحليب بالمربى والزبدة. رددت على مكالمة وصلتني. أفكّر بإجراء مكالمة أخرى مع أخي العربي رجل الإطفاء، أطمئن من خلالها عن صحته، كنت التقيت به قبل الأمس وكان يعاني من زكامٍ حادٍ.
السّاعة الحادية عشر وثماني عشرة دقيقة، فتحت الموبايل، تصفحت الفايسبوك، أقرأ منشورًا جديدًا كتبه زميلي السابق لعكيكزة ياسين: «الحمد لله الشافي المعافي، بعد ١٩ يوما من الإصابة بكوفيد-١٩، وتبعية تامة لمكثف الأكسجين لمدة ٩ أيام، أنعم عليّ ربي بليلة هادئة وتنفس طبيعي، فالحمد له والشّكر له، أقدم تحياتي وتقديري وامتناني لكلّ من ساندني وأعانني على تخطي مرضي أو سأل عني أو افتقدني أو خصني

بدعاء في ظهر الغيب». تنفست ملء رئتي، وشعرت ببعض البهجة لتماثل زميلي للشّفاء وسط الركام والإحباط الذي يحوّطنا من كلّ الجهات. لاحقًا انتبهت لتكرار الرّقم تسعة ثلاث مرات في منشوره، ثم استغربت من نفسي لمجرد التّفكير بالأمر على هذا النّحو من السّطحية. ممكن مأتى ذلك الفراغ الذي التهم يومياتنا في زمن الوباء! أضحينا نلامس الأشياء المفرحة والمبهجة ببالغ اللطف والحذر، كما لو أنها لحظات سعادة سريعة الانفلات والانكسار!

السّاعة الواحدة إلا ربع زوالًا، أشعر بالجوع، جيِّد أنّني لن أرهق ذهني بالتّفكير بوجبة الغداء، فهناك طبق من أكلة الشّخشوخة التّقليدية بلحم الخروف. أحضرت لي أختي الصغرى البارحة أربع أكلات، كنت قد احتفظت بها في الثّلاجة الحمراء. في الوقت عينه كنت أكرر متابعة أحداث فيلم (Crazy, Stupid, Love)، كنت قد شاهدته بالأمس فقط، فلا شيء مهم أقوم به، وجلّ البرامج التي تعرض على التّلفاز مملة وبائتة، لا امتلك خيارًا آخر غير الاستمرار في متابعة هذا الهراء الذي يعرض على شاشة التّلفاز.

السّاعة الثّالثة وأربع دقائق، مازلت مستلقيًا على السّرير، على شمالي الريموت كونترول، وجهاز تشغيل المكيّف، ونظارات القراءة، والكتاب ذاته غير المكتمل عن خوان غويتيسولو، وكتاب آخر عنوانه: (الزّمن). على الشّاشة أمامي جينيرك فيلم (Dalida)، يبدأ الفيلم مباشرة بمحاولة انتحار الفنانة داليدا بفرنسا. ومع ذلك، أشعر مرة أخرى بوطأة وثقل الزّمن، كأنما هو مادة طيِّعة في يد الوباء، تتلاعب بها أنى شاءت؛

تمطط اللحظات المرعبة وتقلص اللحظات المبهجة! اختلط عليّ الماضي بالحاضر، الحاضر المستمر في قض مضجعي، والمستقبل الذي لم يجيء بعد. الزّمن توقف في فترة الوباء، لا حركة، لا تحول، لا مكان، لا تغير، لا انتقال، لا تتابع، عدا أنّ الزّمن أضحى ينطوي على مأساة الموت بكل ما تحمله الكلمة من ثقل، ورهبة، وألم، وعذاب، وخلاص، وغيرها من المحمولات الأخرى الممكنة وغير الممكنة.

السّاعة الخامسة زوالًا، أعداد ضحايا الوباء في تصاعد مستمر، ومع ذلك وباء آخر مواز يفتك بالنّاس وبقدرتهم على المقاومة والاستمرار، وباء جشع التّجار وقذارة نفوسهم الكريهة؛ سعر القرنفل يرتفع دون سابق إنذار من ٢٨٠٠ دينار إلى ٨٠٠٠ دينار، فضلا عن تصاعد حاد في سعر الليمون، قفز من ٢٠٠ دينار إلى ٨٠٠ دينار. فقد زاد الطّلب عليهما بشكل كبير جراء استخدامهما في تعزيز مناعة الجسد.

السّاعة السّادسة وست دقائق زوالًا، جلست إلى الطّاولة. خلف النّافذة تظهر البنايات على مد البصر يحوّطها البحر شمالًا، الهواء أقل ندرة من الأيام الفارطة، والسّماء فارغة من الغيوم. مرت على ذهني صور متفرقة وانطباعات من الزّنزانات الطّوعية وغير الطّوعية التي حشرنا فيها الوباء، وفيما أنا مشتت البال ومشوش الخيال، رحت أقرأ منتخبات من روايات غويتيسولو، وأمد يدي إلى صحن كعك التين وكأس الحليب، في سلوك غريب للبقاء والحفاظ على رباطة الجأش جراء الضّياع واليأس اللذين استبدا بي. رغم كل مجهودي في الخروج من المأساة، إلا أنّني أراني غارقًا حد

الرأس، ومع ذلك تكفيني المحاولة من جديد ككل مرة، لإنقاذ ما يجب إنقاذه، على الأقل كأضعف الإيمان.
السّاعة السّابعة، فتحت الباب وخرجت. تمشيت في الكورنيش، الشّاطئ الرّملي فارغ، رجال الشّرطة يملؤون المكان، وأربعة منهم بالزيّ المدني يلزمون أيّ مخالف بارتداء الكمامة. استمتعت بنسمات الهواء بين الحين والآخر، ومع ذلك تعرقت بعض الشّيء جراء ارتفاع درجة الرّطوبة. قفلت راجعًا إلى الشّقة، دخلت في السّاعة التّاسعة وعشرين دقيقة ليلًا. التهمت صحن لوبيا خضراء بلحم الخروف مع العنب والموز وعصير الليمون.

25

٢٠٢١/٨/٣

الحياة فقدت إيقاعها، وعقارب الزّمن علقت في الرّتابة والملل أو المعاناة والموت؛ سيّان أن تصحو أو تغفو، لا فارق أن تبقى ببيتك أو تخرج، الأمر ذاته أن تكون في عطلة أو مازلت تداوم في وظيفتك، أن تبتلعك الهواجس أو تكون مطمئن البال فالأمر عينه أيضًا، من يأبه أن تحلق شعر وجهك أو تتركه ينمو كأعشاب الغابة، أن تقاوم أو تستسلم، لا شيء مختلف سيحدث في الأفق! الوباء بات أمرًا واقعًا، ومعاشًا، ولا رغبة له مطلقًا بالمغادرة أو التلاشي، أو تركننا بسلام. علينا أن نعتاد الأمر، نتقبله، ونتعايش معه. لا خيارات أخرى متاحة أمامنا، غير قبول الأمر الواقع على مضض.

أفقت في السّاعة السّابعة وربع صباحًا. نهضت متكاسلًا من السّرير في العاشرة والنّصف. غسلت أطرافي. نظفت أسناني. تناولت فطوري. تابعت برامج تافهة يعرضها التّلفاز. جلست إلى الطّاولة، فتحت النّافذة، الهواء شحيح ومع ذلك ملأت رئتي، تأملت منظر المدينة المثقلة والمتعبة

والمعتلة بالأزمات والشّرور، حيث البنايات البيضاء، والقرميد الأحمر، وخضرة الأشجار، وزرقة البحر، وبقايا القلعة الحفصية ترقب بصمت ما حل بالمدينة العتيقة لابلاص دارم، وأشعة شمس آب/أوت تحاول عبثًا أن تغسل جسد المدينة، وتطهره من الآثام واللعنات العالقة واللاحقة.

السّاعة الحادية عشرة وأربع وخمسون دقيقة، كوريا الجنوبية تعلن حالة التّأهب مع ظهور سلالة جديدة من كورونا (تسجيل حالتي إصابة من متحوّر دلتا بلس)؛ بينما صديقي (ت) رئيس تحرير جريدة الصّقر المحلية، غارقٌ حد الأذنين في نقاشٍ حول ارتفاع ثمن فنجان القهوة بما قدره بعض السنتيمات! الرجل يصف خبر رفع ثمن كوب القهوة بالصّدمة على ساكنة المدينة، في حين يصف الفيروس بأنّه محض خيال وتوهمات لا أساس لها على أرض الواقع، لا يؤمن إطلاقا (كما سبق وحدثني) بوجود الوباء، في حين لديه استعداد لإجراء التّلقيح من باب التّجريب فقط!

الثّالثة وسبع وثلاثون دقيقة زوالًا، تناولت غدائي. التهمت صحن العنب والموز وصحن الفلان بالكراميل. لم انس شرب كأس من عصير الليمون. شربت القهوة. تسمرت أمام الشّاشة، مرعام على تفجير ميناء بيروت، عائلات الضّحايا يروون شهادات مؤلمة وصادمة. في حين قناة الجزيرة غارقة في كشف ما تدعي أنّها مؤامرة إماراتية على دولة قطر، جراء السّيطرة على إنتاج وتحوير سيناريو الفيلم الهوليودي غريبو الأطوار (The Misfist).

السّاعة الرّابعة وسبع وأربعون دقيقة، أقرأ منشورًا يمنحني جرعة ابتهاج وأمل، نشره الصّديق مروان ناصح على الفايسبوك: «الشّمس تشرق أيضًا على ضفاف الآمال السّاحرة.. يوم جديد رائع أيها الأحبة.. استجابتي للعلاج مذهلة.. لكن لا أحد يعرف متى يخرج هذا الفيروس الخبيث.. وإني لمن الصابرين إن شاء الله.. دمتم ودام لكم الخير ونعمة المحبة». الحمد لله، الصديق مروان ناصح يتماثل للشفاء تدريجيا بالمستشفى، وحالته الصحية تتحسن من يوم لآخر؛ عرفته قبل ست سنوات في نقاش جمعنا حول روايتي: «خرافة الرّجل القوي»، هو سيناريست سوري مقيم بالجزائر، ومدير قناة الدراما السورية سابقا، والخبير أيضا في الانتاجات الدرامية السورية الضخمة والمشرف عليها.

السّاعة السّادسة والنّصف زوالًا، التقيت صديقي رابحي، تسكعنا في وسط المدينة، مررنا على مكتبة الثورة، ثم سرنا في اتجاه أتوليه صديقنا الفنان التّشكيلي تمتام، كانت الفوضى تعمُّ المكان، بعد لحظات وصلتني رسالة على المسنجر من صديقي زرفة، يطلب مني تحميل تطبيق (clubhouse). حينما دخلت إلى غرفة الدردشة المقترحة من قبله، كان النّقاش محتدمًا حول موضوع الأكفاء وعديمي الكفاءة في الجزائر، بصراحة شعرت بالملل، وغادرت. في الأتوليه تبادلنا النّكت والأخبار والنّقاش، لم أشعر بمضيّ الوقت. السّاعة التّاسعة والنّصف، خرجنا من أتوليه صديقنا تمتام. تقاسمنا الطّريق، وعند المنتصف تفرقت سبلنا.

قرأت اليوم عن اجتماع دوري سيعقده غدًا رئيس

الدّولـة بالمجلـس الأعـلى للأمـن، ظننـت أن الأمـر متعلـق باكتشـاف اسـتعمال المخابـرات المغربيـة لبرنامـج الكـتروني للتجسـس عـلى شـخصيات جزائريـة نافـذة، لكـن اسـتبعدت الفكـرة بمجـرد قـراءة كلمـة (اجتمـاع دوري). يتسـاءل صديقـي مسـتغربا: لمـاذا الرئيـس لا يجتمـع دوريا إلا بالمجلـس الأعـلى للأمـن؟ هـل نحـن في حـرب؟ الرئيس لا يجتمع بخبراء الاقتصاد، ولا الصّحـة ولا التّربيـة، ولا الإعـلام، ولا الزّراعـة، ولا المفكريـن والفنانـين، ولا الشّـباب، ولا النّسـاء، ولا الأئمـة، ولا المجتمـع المـدني، ولا القضـاة!

26

٢٠٢١/٨/٤

السّاعة العاشرة والنّصف صباحًا، نهضت مشتت البال. مازلت بين اليقظة والنّوم، غارق في خيالات وتوهّمات، عقلي لا يتوقف عن التّفكير، مثل آلة ميكانيكية في مصنع؛ هل الطّبيعة تغلبت على الإنسان، هذا الكائن الصّغير، المتكبر، والمتبجح، الذي غزا الفضاء، وسخر العلم والتّكنولوجيا للسيطرة على الكون، متظاهرًا بقدراته اللامحدودة. حتى ظهر مجرّد فيروس، أوتوقراطي، عاصف، مستدمر، ومستمر مع الزّمن في احتلال المكان والتّوسع الاستيطاني في الأجساد؟ ومع ذلك هو ديمقراطي الإبادة والتّدمير، لا يفرق بين أحد. لا أبيض ولا أسود، لا أعجمي ولا عربي، لا صغير ولا كبير، لا غني ولا فقير. الكل أمامه متساو، لابد للكل أن يأخذ نصيبه دون أدنى استثناءات! فيروس فتاك، لا يرحم ولا يفرق بين ضحاياه. أضحى جلّ النّاس وهم في بيوتهم، أو في الشّوارع، أو في أيّ مكان كان، يخشونه، ويخافون من لا شيء، أو من شيء غير مرئي، كأنّه مجرّد وهم، لا يعرف مصدره، ولا من أين جاء، وإلى أين سيذهب، أو حتى متى سيغادرنا من غير

رجعة، وكيف السبيل إلى ذلك وهو الفيروس المستجد؟

السّاعة الثّانية عشرة إلا ربع، تناولت فطوري. فركت بعض الملابس، علقتها على مشجب الغسيل. أفرغت في القدر الذي اقتنيته مؤخرًا، الصّلصة باللحم التي جهزتها لي أختي قبل أيام، ثم أضفت لها نصف كيس معكرونة معقوفة، وتركتها تطهى على نار غير هادئة، وبين الحين والآخر كنت أحرك داخل القدر بملعقة خشبية، إلى أن استوت الطّبخة.

رجعت إلى غرفة النّوم، السّاعة الواحدة وثمان وعشرون دقيقة. مازال ذهني مشغولًا بالتّفكير في ما يلوكه العامة والدّهماء وحتى جزء كبير من حاملي الشّهادات، على أن هذا الوباء هو عقاب جماعي من الله على البشر! لماذا يزج دومًا بالدّين عنوة في كلّ شيء؟ هل بمجرد التّقرب إلى الله يزول عنا الوباء، أم بالتّطوّر في النّظام الصّحي، وبتوفير الرّعاية والدّواء والأكسجين؟ التّقرب من الله يقود إلى الجنة. دومًا ما يعلق الإنسان فشله وعجزه وتقصيره على مشجب التأويلات الغيبية والغبية في ذات الوقت. أعتقد أنّ الإنسان يتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية، جراء خياراته الخاطئة في الحياة. وليس دومًا للدين دخل. التّظاهر بالسّذاجة في هكذا ظرف استثنائي ليس دومًا قمة الذّكاء، بل هرب من تحمل المسؤولية، سبق وقيل عن الاستعمار الفرنسي للجزائر بأنّه قضاء وقدر من الله! ولا راد لقضاء الله غير الاستكانة له، والقبول به خيره وشره.

السّاعة الثّالثة إلا عشر دقائق، أحدق في سقف الغرفة بينما أنا مستلقٍ على السّرير. الثرية البيضاء المزخرفة

تتراقص في الفراغ، جراء الهواء المنبعث من مكيّف الهواء. ورأسي شبه منتعشٍ، صافٍ، وخفيف. أشعر بذهني يحلق في الهواء بعد فنجان القهوة المضبوطة، كأنّني منتشٍ. صوت التّلفاز يصدح في الغرفة، لا آبه له، ولا لتلك البرامج المكررة، والمملة، والتّافهة، والسّطحية. ترددات الضّوء المنبعثة من زجاج النّافذة تشعرني ببعض النّشاط، وتجعلني نوعًا ما أتحرر من الكآبة وأتخفف من التّعب. كنت أواظب على شرب عصير الليمون، ومع ذلك لا أعتقد أن الليمون وحده يقوي جهازي المناعي، بل حتى ضوء النّهار يفعل ذلك، أتحدث عن ذلك من منطق المجرب، فقد كانوا يقولون لنا عندما كنا صغارًا: اسأل المجرب ولا تسأل الطّبيب.

السّاعة الرّابعة إلا ست دقائق زوالًا، كنت أشبه بالغائب عن الوعي، ومع ذلك تحسن مزاجي، واعترتني حالة من السّكينة والهدوء والاطمئنان والرّضا، وشيء من الحكمة، إذّاك كنت أخاطب نفسي بلغة متفائلة، حدثتها عن موضوعات شتى، على منوال؛ نشيخ حين نترك حياتنا نهبًا لهذا الوباء، يتصرف فيها أنّى شاء. عندما نفقد الرغبة في المقاومة، وحينما نعتقد أنّنا لا يمكن أن نتغلب عليه. أو حينما نكون واقعيين أكثر من اللازم، محبطين، ومتشائمين ممّا يحمله لنا الغد، كون ذلك يوصد في وجوهنا أبواب المخيِّلة، والقدرة على الحلم، واجتراح الحلول، وابتكار طرق أخرى لانبعاثنا مرة أخرى من رماد الموت والجثث المحيطة بنا من كلّ الجهات. نشيخ حينما نفقد إيماننا بأنفسنا، حينما تفقد نظرات عيوننا شغف الحياة.

السّاعة الرّابعة وسبع وأربعون دقيقة، شعرت ببعض الجوع، تناولت خمس قطع صغيرة من كعك القرفة. موبايلي يرن، على الشّاشة يظهر اسم برهان صديق فترة الدراسة بالجامعة. دعاني إلى فنجان قهوة على مقربة من فندق تورينغ في وسط المدينة. اعتذرت عن تلبية الدعوة، مازال الوقت مبكرًا على موعد خروجي من الشّقة، كما أن ارتياد المقاهي في هذه الفترة أمر غير مضمون العواقب. أشعر بتشنج وألم في قدمي اليسرى، لا يلبث وأن يزول بسرعة.

السّاعة الخامسة وأربعون دقيقة، أخذت حمامًا دافئًا أنعشني. لاحقًا، اتصل بي الصّديق برهان مرة أخرى، يقول إنّه بمحاذاة البناية التي أقيم بها. انتقلنا بالسّيّارة إلى غابات سرايدي، تنفست ملء رئتيّ، واستمتعت برؤية المنظر البانورامي المطل على شاطئ جنان الباي. كان موسم الفلين. ووجدنا بعض العائلات مجتمعة في المكان. بعد ذلك انتقلنا إلى منطقة الشط، دعاني صديقي على أكلة البوراك بفواكه البحر. وجدنا طابورًا طويلًا أمام المطعم، كان صديقي قد حجز مسبقًا الطلبيّة بالهاتف.

27

٢٠٢١/٨/٥

السّاعة العاشرة صباحًا، حالما صحوت من النّوم صدمني سماع خبر جديد عن الحجر؛ اليوم لن أتمكن من الخروج مساء كما دأبت عليه من قبل، تم إضافة مدينتي عنّابة إلى بقية المدن الأخرى المحجور عليها. فأنا ممنوع من الخروج من الثّامنة ليلًا وإلى غاية السّادسة صباحًا طيلة عشرة أيام قابلة للتّجديد، الفترة التي كنت أجدد فيها طاقتي وأستعيد علاقتي بالحياة، لا مجال للتمشي والتّنفيس من ضغط البقاء طيلة النّهار بالشّقة على وقع الهواجس والأخبار السّيِّئة! من الصّعب فهم منطق متخذي القرار في هذا البلد؛ هل الفيروس يختفي نهارًا حيث تكثر الحركة ويعم الزّحام، ويظهر ليلًا حيث ينزوي أغلب النّاس إلى بيوتهم؟

السّاعة الحادية عشرة وست وعشرون دقيقة، الموبايل يرن، اتصال من أختي الصغرى آمال، خبر آخر سيّء، تبًا، أخي العربي (رجل الإطفاء) يعاني برئتيه، وبالكاد يقوى على التّنفس والكلام. اليوم تظهر نتائج السكانيير. يا إلهي التقيت

به السّبت الماضي، ولما وقفت على حالته، أخبرني أنّها مجرد أنفلونزا أو زكام عابر، بسبب تناول المثلجات الباردة أو الجلوس تحت مكيّف الهواء وجسده متعرق. في البداية شككت في الأمر، وحذرته من احتمال أن يكون فيروس كورنا. ومع ذلك طمأنني. وقد اتصلت به يومين بعد ذلك اللقاء للسؤال عن صحته، ومع ذلك طمأنني مرة أخرى. يا إلهي انفطر قلبي لسماع الخبر، أخشى أن لا تتحمل رئتاه الفيروس، هو مدخن شره. أتمنى أن تخيب ظنوني، ولم يكن مصابًا بالوباء، سمعت أيضا من أختي أن التحاليل الأولية للكشف عن الفيروس أظهرت إصابة زوجته (نتائج ايجابية)، في حين كانت سلبية بخصوصه، لذلك طلب منه الطبيب إجراء سكانير للتثبت من الأمر. لم أحرك ساكنًا، بقيت مكتف اليدين بالشّقة، ومشغول البال، أنتظر أن يحين موعد استيقاظه كي اتصل به، وأرى ما سأفعله. فقد رجع صباحًا من العمل، بعد ليلة شاقة، لذلك لم أرغب في إزعاجه.

السّاعة الثّانية زوالًا، بعدما تناولت الغداء وشربت قهوتي، تصفحت منشورات الفايسبوك، هناك سجال متزامن مع القبض على الرّئيس المدير العام الأسبق للشركة البيترولية العملاقة سوناطراك، بعد أن تسلمته الجزائر من طرف دولة الإمارات. في العادة هكذا سجالات يغرق فيها المثقفون أكثر من العامة والدهماء. أعتقد بسبب الفراغ الذي يملأ الحياة الثقافية بالجزائر، وبسبب العطالة الثّقافية والإبداعية أيضًا، فلا شيء اسمه مشروع ثقافي يلفت الانتباه عن الخوض في النّقاشات البيزنطية التي لا طائل من ورائها

غير تجزية الوقت وهدره، الموضوع برمته يعني السلطات الأمنية والقضائية. يقول ناقد وأكاديمي: «بصرف النظر عما قام به هذا المخلوق الذي كان يعتبر عبقريا في «جزائر العزة والكرامة»، كغيره من اللصوص، هل يجوز إذلاله دستوريا وقانونيا؟ وما وظيفة جهاز القضاء أمام هذه المشاهد؟ أسئلة موجهة لرجال القانون، وللعارفين بالشأن». يرد روائي بمنشور آخر: «لم أشعر بأن ما حدث لولد قدور.. يعتبر إهانة... الإهانة تشعر بها عندما يموت العشرات لعدم توفر الأكسجين..».

السّاعة الثّانية والنّصف اتصلت بأخي العربي، أخبرني أنه في الطّريق إلى المشفى الخاص لاستلام نتائج السكانير، علاوة على الفحص الطّبي. غيّرت ملابسي على عجل، وخرجت من الشّقة. أوقفت سيّارة أجرة. أنا الآن على مقربة من مدخل المشفى، في انتظار خروج أخي. اتصلت بأختي الصّغرى، طمأنتها. السّاعة الثّالثة وأربعون دقيقة، خرج أخي من المشفى، الحمد لله نتائج السكانير أظهرت التهابًا في أضلع الصّدر، ومع ذلك يبقى تهديد أو احتمال الإصابة بالعدوى واردًا، لأنّ زوجته مصابة بالوباء. أوصلت أخي إلى بيته. ثم مررت على بيت أختي، وبيت الوالد لاحقًا. وفي السّاعة السّادسة وعشرين دقيقة بعد الزّوال غادرت. في الطّريق إلى شقتي مررت على السوبر ماركت لاقتناء بعض المشتريات العادية، تفاجأت بالعدد الكبير من الزّبائن يحتشدون في طابور أمام موظف الصّندوق. قرارات الحجر الجزئي، أو الإشاعات، أو الأزمات المؤقتة، تدفع النّاس لإفراغ رفوف المحلات والمتاجر، فوبيا

الشّراء تتحوّل إلى مرضٍ عضالٍ يصعب التَّحكم في أعراضه وتستحيل السَّيطرة على تداعياته.

28

٢٠٢١/٨/٦

السّاعة الحادية عشرة وخمس وثلاثون دقيقة، أرسلت لي أختي الصغرى وجبة الكسكس بالعصبان ولحم الخروف، يوم الجمعة مخصص لتناول وجبة الكسكس؛ هذا هو ديدن العائلات بعنّابة خصوصًا، وشمال إفريقيا على وجه العموم. لا شيء يضاهي محبة الأم، الأخت، البنت، والإخوة، والعائلة في اغلب الأحيان.

زارني أخي عبد الحق بشقتي، أمضينا ساعات في أحاديث وحكايات وذكريات لا نهاية لها، لم نشعر بمرور الوقت إطلاقًا. تربطني مودة ومعزة كبيرة مع إخوتي وأخواتي، توطدت أكثر بعد وفاة الوالدة عام ٢٠٠٦.

السّاعة الثّالثة والنّصف زوالًا، مازالت أخبار الفيروس اللعين تقتحم خلوتي، دون استئذان. لم تعد وسائل التّواصل الاجتماعي بمثابة مكان للتّنفس أو التّنفيس.. لعلها اليوم باتت أكثر كآبة ومأسوية مما يحدث فعلًا على أرض الواقع! أقرأ خبر إصابة والدة الأستاذة بونيف (سبق وأن نشرت

مقالا عن روايتي زنقة الطليان)؛ «ما ذنب أمي لتدفع ثمن حربكم البيولوجية أيها الأوغاد! أمي المرأة المسالمة، النّشيطة، الكريمة، كانت تطعم العصافير على الشّرفة، ومازلت توصي بقطط العمارة. اتسع صدرها للجميع، ومع ذلك ضيّق عليها الفيروس اللعين صدرها، وضاقت أمامنا الأرض بما رحبت، أصبحنا نتنفس من خرم إبرة». السّاعة الآن الرّابعة وأربع وثلاثون دقيقة زوالًا، يظهر على شاشة التّلفاز الشّريط الأحمر للأخبار العاجلة، أقرأ خبرًا غريبًا نوعًا ما: «شبكة سي إن إن الإعلامية تعلن أنّها طردت ثلاثة موظفين لديها، بسبب مجيئهم إلى العمل من دون أخذهم اللقاح ضد فيروس كورونا». الوباء تمكن أيضا من تغيير معايير الإقالة من الوظيفة! فضلًا عن ذلك فقد امتد أثره إلى النّكت، إذ كتب فتحي جارنا ببيت أبي على صفحته على الفايسبوك متهكمًا على الوضع المأساوي في غرف الإنعاش بالمستشفيات الجزائرية، التي تعيش انقطاعات في تزويدها بالأكسجين، ما يتسبب في غالب الأحيان في وفاة عشرات المصابين بالوباء في الوقت عينه: «الحمد لله الذي رزقنا رئتين بقيمة محطة ضخ الأكسجين ثمنهما مليار و٥٠٠ مليون.. ولمن استطاع إليها سبيلا». مع تزايد منسوب الأخبار السّيِّئة، أفضل مشاهدة شريط وثائقي حول الحيتان على قناة الجزيرة الوثائقية، علني أخرج بعض الشيء من الحالة النّفسية جراء تصفح وسائل التّواصل الاجتماعي.

السّاعة الخامسة زوالًا، الغريب في هذا المجتمع أنّ بق الجهل عشش في أمخاخ الكثيرين ردحًا من الزّمن، الجهل

أكثر فتكًا بصاحبه مقارنة بفيروس كورونا. صادفت عشرات المصابين بالوباء، المفارقة أن اغلبهم لم يبدأ العلاج في الأيام الأولى من الإصابة، ما يجعلهم عرضة لكل الأخطار التي تبدأ بالبحث عن الأكسيجين في أروقة المستشفيات المنهارة، وقد تنتهي بخسارة الحياة. بدلًا من التّفكير بزيارة الطّبيب، ومباشرة العلاج بالأدوية الخاصة بالفيروس، من أجل الشّفاء العاجل. تجدهم يبحثون عن مبررات واهمة لتبرير أعراض الوباء التي لا تستدعي الشّك مطلقا؛ «عندي فقط حساسية حادة»، «نمت البارحة تحت مكيّف الهواء»، «استحممت وتعرضت لضربة هواء بارد»، وغيرها من الأحاديث التي تنم عن ارتفاع منسوب الجهل والتّخلف بشكل قد ينفرك من الانتماء إلى هكذا مجتمع بائس وغريب الأطوار. لو لم يكن الجهل موجودًا في حياتهم لاخترعوه.

السّاعة السّادسة وثلاث دقائق زوالًا، كنت أفكر في قرارة نفسي عن الحاجات الاجتماعية، فقد دأب الإنسان على الاحتكاك، والتّفاعل، وربط العلاقات مع الآخرين على مدار الزّمن. فهو أولا وقبل كل شيء بمثابة كائن اجتماعي، من الصّعب أو من الاستحالة عليه العيش بمعزل عن البقية. عندما اقتحم الفيروس حياة النّاس، قلبت المعادلة رأسًا على عقبٍ! بالأحرى كيف له أن يعتاد على عكس ما خبره وألفه؟ استحال هذا الإنسان بامتياز، ودون رغبة منه، إلى كائن وبائي، مطالب بالعيش ومواصلة حياته منطوٍ على نفسه، محاصرًا بين أربعة جدران، وكفى.. داخل قارورة معقمة غير قابلة لا للفتح ولا للغلق. مكمم الفم والأنف، لا يمكنه لا الاعتراض،

ولا التّعبير عن أي موقف من الحياة الجديدة التي ادخله فيها الوباء. لا يعرف بالأساس كيف بإمكانه الخروج من قاع تلك القارورة، ولا متى سيتحرر من قمقم هذه الصّدمة غير المسبوقة في حياتنا المعاصرة..!؟

السّاعة السّادسة وأربعون دقيقة زوالًا، مذيع قناة الشّروق، ينقل عن جريدة "البيريوديكو" الكتالونية، الخبر الآتي: « تم اليوم الجمعة العثور على جثة راكبة الأمواج الجزائرية (بختة رمضاني) على سواحل إسبانيا، والتي اختفت مارس الماضي من السّواحل الجزائرية، وقد تم التّعرف عليها وتحديد هويتها عن طريق فحص الحمض النووي». تواصلت مع بختة طيلة شهري جانفي وفيفري، وكنا بصدد الالتقاء بالعاصمة في نهاية جانفي للاتفاق على مشروع انجاز مؤلف حول سيرتها، لكن تأجل اللقاء بسبب سفرها إلى تيميمون، ثم تأجل اللقاء مرة أخرى بعنّابة لارتباطات خاصة بي، ولاحقًا في بداية مارس أخبرتني أن هناك صحفيا عرض عليها إعداد الكتاب مجانًا، وإنّها بصدد الاتفاق مع قناة الجزيرة الرّياضية (بين سبورت) لإنتاج فيلم حول مسيرتها، تمنيت لها التوفيق، ورغم استغرابي من تراجعها عن اتفاقنا السّابق دون سابق سبب مقنع، أدركت استحالة مواصلة التعامل معها. ومع ذلك أخبرتها بكل هدوء ومودة (بعد أن جددت دعوتها لي) أن تشتغل على إنجاز الكتاب مع الصحفي إياه، علما أني كنت في قرارة نفسي أعتقد أن وعود ذلك الصحفي كاذبة ومجرد كلام عابر الغرض منه افتكاك حوار معها. حزين جدًا لرحيلها. ألف رحمة ونور على روحها.

السّاعة التّاسعة وثمان وخمسون دقيقة، من يوم أمس لم أخرج، بقيت محتجزًا في الشّقة، معاناة مضاعفة؛ يوم الجمعة كلّ شيء معطل فيه، علاوة على الحجر الجزئي الذي يبدأ من الثّامنة ليلًا وإلى غاية السّادسة صباحا. ترى متى سينتهي كابوس الحجر، والوباء من غير رجعة؟ السّؤال ذاته يتردد باستمرار في ذهني، لم أجد له إجابة، ولا أي كان بإمكانه معرفة الجواب. لا خيار سوى الانتظار، الصّبر، التّعود، التّعايش مع الأمر، ومحاولة الحفاظ على القدرة على المواصلة والاستمرار والبقاء. إنّ الشّغف بالحياة هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الوباء أن ينال منه.

السّاعة الواحدة بعد منتصف الليل، شاهدت فيلم مدينة صامتة (Silent City)، بطلته امرأة شابة، اسمها روسا. تضطر إلى السّفر إلى طوكيو من أجل أن تتعلم من أستاذ ياباني شهير فن تحضير السمك. حيث تجد في البداية صعوبة كبيرة في التواصل مع ثقافة منغلقة وأحادية اللغة، وفي مدينة تحوّل الإنسان إلى مجرد آلة أو رقم، جراء شعوره بالاغتراب والوحدة بشكل طاغٍ، على شاكلة ما نعيشه اليوم بسبب الوباء. من أجل هذا الهدف لابد أن تتعلم طبيعة السّمك. إن العيش في عاصمة يابانية هو مثل العيش في الماء، يمكن أن تعوم ولكن يمكن أيضاً أن تغرق. ومع كلّ الإكراهات والتحديات التي واجهتها، تنجح في النهاية على تحقيق الرّهان الذي سافرت من أجله.

السّاعة الثّالثة إلا ربع صباحًا، نهضت مفزوعًا بسبب كابوس لعين. حاولت النّوم من جديد لكن من دون جدوى.

كنـت أتقلـب في الفـراش بسـبب الأرق. السّـاعة الآن عـلى شاشـة الموبايـل تشـير إلى الخامسـة وإحـدى وثلاثـين دقيقـة صباحًـا.

29

٢٠٢١/٨/٧

بالكاد نمت البارحة، ذهني مشتت، استبد بي الأرق طيلة الليل. عند السّاعة الحادية عشر وثلاث دقائق خرجت من الشّقة، حالما تجاوزت بوابة سور البناية صرعني القيظ بشكل مباغت، نسيت أنّني قرأت البارحة نشرية خاصة، صادرة عن الأرصاد الجوية، تحذر ساكنة المدن الشّمالية من موجة حر لا تطاق، ستبدأ من اليوم السّبت.

مشيت من مكان إقامتي إلى وسط المدينة، كأنّني أتجوّل في الجحيم، من شدّة التهاب الجوّ. مررت بساحة «أليكسيس لومبير»، رواد المقاهي هناك زرافات ووحدانا يرتشفون من أكواب القهوة وقوفًا تحت الأشجار الظّليلة، علاوة على أنّ سوق العصافير وسط الساحة على مقربة من إكمالية جورج إسحاق، مكتظ على آخره بباعة الطّيور وحشود المشترين من مربي العصافير! الأجساد متقاربة ومتلاصقة، ولا وجود لأدنى اعتبارٍ بخصوص تطبيق إجراءات التّباعد والسّلامة من العدوى بالوباء.

واصلت تقدمي إلى أن ولجت أزقة ودروب المدينة

العتيقة «لابلاص دارم»، حالما تجاوزت مسجد صلاح الدين الأيوبي أو الكنيس اليهودي (الغريبة) سابقًا، لاحظت أن محل ياسين الحلاق مغلق. في العادة قد يخرج إلى مشوار قريب، ويرجع بسرعة. لذلك منحني رقم موبايله كي أتصل به في مثل هاته الظروف. حالما رفع السماعة اعتذر مني بسبب عدم تمكنه من المجيء جراء إصابته بالعدوى بالفيروس، كما أخبرني بأنّه في الأسبوع الأوّل من العلاج. تمنيت له السّلامة والشّفاء العاجل، وغادرت بحثًا عن حلاق آخر.

السّاعة الثّالثة إلا عشر دقائق زوالًا، موبايلي يرن، اتصال وارد من زميلي زرفة. يا إلهي خبر آخر سيئ هذا اليوم؛ وفاة والد صديقي وزميلي محفوظ بولقصيبات. ألف رحمة ونور على روحه. عداد الموت لا يتوقف ليل نهار، والفيروس اللعين يرغب في القضاء على الكائن البشري على هذا الكوكب، معدل اجتثاثه للأرواح البشرية يتزايد بمتوالية هندسية وعبثية في الوقت ذاته. لن يهدأ له بال حتى يقضي على آخر كائنٍ حيٍّ!

السّاعة السّابعة إلا ربع بعد الزّوال، غادرت الشّقة مرة أخرى. الجوّ في الخارج محتمل نوعًا ما، مقارنة بما سبق، ومع ذلك درجة الرّطوبة عالية. تمشيت لنصف ساعة، لاحقًا اقتنيت بعض المستلزمات من السوبر ماركت وسط اكتظاظها بالزبائن على غير العادة، ثم قفلت راجعًا إلى الشّقة.

30

٨ أوت ٢٠٢١

أفقت.
قمت بطقوسي المعتادة.
غادرت الشّقة.
اقتنيت مستلزمات المعيشة ومشتريات أخرى.
عدت أدراجي إلى شقتي.
استحممت.
أكلت.
كنت أتملى منظر المدينة من خلف النّافذة وأنا أتحدث في قرارة نفسي؛ الطمأنينة عملة نادرة، وضالة من يرغب في البقاء والاستمرار على هذا الكوكب الموبوء. أنّى وجدها فهو محظوظٌ وأحق بها في الوقت عينه. كيف لي أن أعثر عليها، أن أقبض على تلابيبها بأصابع يديّ وأنا بين مطرقة الوباء وسندان القلق والاضطراب؟ هل بإمكاني أن أجدها، أن أمسك بها، أن أشكّل منها بقبضة يدي غيمة، كرة، عصفورًا، أو أيّ شكل آخر أتسلى به؟ أفكّر كيف أشدُّ عليها جيدًا، خشية أن لا تسقط من بين يدي، أو مخافة أن يفكر أحدهم

في اختطافها مني أو سرقتها، أو حرصًا من أن لا يتسلل إليها القلق والملل، ويبعثرانها من بين أصابعي كما تفعل الرّيح بالغبار وبحبات الرمل. وأبقى أسيراً للحسرة، تنهشني النّدامة كما ينهشني الزّمن المتسرب من العمر خلسة، وأنا في اللا حياة الاضطرارية التي أوجدني فيها الوباء دون رغبة مني أو من أيّ كان!

قضيت اليوم كلّه متفقدًا أثر الحياة في الشّوارع والأزّقة، والدّروب، طمعًا في الاطمئنان، أو بحثًا عن دعة، أو سلام، أو تصالح مع الذّات المشتتة، وإن كان قصيرًا أو عابرًا تحت سماء الله. لم أجد في عيون النّاس الذين صادفتهم غير الذّعر، والاضطراب، والخوف، والجزع، والفزع، والرّعب، والاحتراس المبالغ فيه. أمضيت القيظ القائظ ماشيًا كمشردٍ، أو تائهٍ ظلَّ طريقه، أمضيت وأنا أجرُّ أحلام اليقظة وأذيال كوابيسها المرعبة في عز النّهار إلى حيث لا أدري أين ستحطني ركائبي. أمضيت برغبة مني أو بدون رغبة، إلى اللايقين أو إلى المجهول!

31

٢٠٢١/٨/٩

السّاعة السّابعة وثلاثون دقيقة زوالًا، أخبار عن حرائق الغابات على المستوى الوطني. التّلفاز العمومي ينقل الخبر الآتي: «تعمل فرق الحماية المدنية حاليًا على إخماد ٣١ حريق غابة عبر ١٤ ولاية؛ ولاية تيزي وزو ١٠ حرائق؛ جيجل ٠٤ حرائق؛ البويرة ٠٢؛ سطيف ٠٢؛ خنشلة ٠٢؛ قالمة ٠٢؛ بجاية ٠٢ ؛ حريق ٠١ عبر ولايات برج بوعريريج، بومرداس، تيارت، المدية، تبسة، البليدة وولاية سكيكدة». انتهى الخبر المشؤوم. ألم تكفي لعنة الوباء، حتى تلحقها لعنة الحرائق؟ ما هذا الجحيم؟ «كأنّ الأرض لم تعد تحتمل وجودنا» كما يقول أحد معارفي. ما يحدث الآن في ولاية تيزي وزو كارثة؛ التهمت الحرائق الغابات والمزارع، وامتدت كذلك إلى البيوت، مما شكّل خطرًا كبيرًا على حياة السّكان.. والكارثة العظمى أنّها قويّة جدًا لدرجة لم يستطع أهالي المنطقة مواجهتها وإخمادها، مما اضطر العديد إلى أخذ عائلاتهم والفرار بعيدًا خوفًا من

الموت المحتوم.

محافظ الغابات لمدينة تيزي وزو يؤكد للتلفزيون العمومي: «حرائق اليوم كانت بفعل فاعل!». قبل أكثر من ثلاثين سنة، وبالضبط في العام ١٩٩٠ زمن العشرية السوداء، أو عشرية الإرهاب والدّم، كان السّؤال المطروح والملح حينذاك: «من يقتل من؟». وها نحن اليوم في عام ٢٠٢١، نطرح السّؤال ذاته ولكن بطريقة مختلفة، لاختلاف الزّمان والوسائل فقط، وبقاء دار لقمان على حالها. نفس النّظام مع تغيير في الواجهة فقط. سؤال اليوم الملح بعد سياسة الأرض المحروقة: «من يحرق من؟».

32

٢٠٢١/٨/١٠

تزامن اليوم مع أوّل محرّم في التّاريخ الهجري، وهو يوم عطلة في الجزائر. الغيوم في السّماء استحالت صفراء وحمراء، إلى درجة أنّها غطت أشعة الشّمس. أسمع صوت الرّيح، من خلف زجاج النّافذة بدأت تمطر، رذاذٌ طفيفٌ، ثم لا شيء. فتحت النّافذة قليلًا لفحتني نسمات هواء ساخنة جدا إلى درجة لو تعرض لها أيّ كان في الخارج لاستحال أشبه بالبيض المسلوق. كأنّ الجحيم يفتح أبوابه على مصراعيها هنا أيضا، درجة الحرارة بمدينة عنّابة تتجاوز الخامسة والخمسين، وحرائق الغابات تزحف اليوم على جبل إيدوغ بسرايدي الذي يحرس المدينة، تبًا لبؤسهم. تحوّل الجزائريون إلى نيرونات متناسلة!

السّابعة تمامًا بعد الزّوال، خرجت لاقتناء بعض المستلزمات. اتصلت للاطمئنان على صحة أخي العربي رجل الإطفاء، أخبرني أنّه بالعمل وفرقته على أهبة الصّعود إلى جبال وغابات عين بربر بعنابة التي التهمتها النيران، لإخماد الحرائق وخشية من وصولها إلى السكان هناك، كما أضاف

مؤكـدًا لي. السّماء الآن تمطـر رمـاد الحرائـق، ومـن حـين لآخـر يسـقط طائـر مـن طيـور الخطـاف (السـنونو) مـن أعشاشـهم ببعـض البنـايات الـتي مـررت بهـا. مـا الـذي يحـدث بربكـم!

السّاعة السّابعة والنّصف بعد الزّوال، قفلت راجعًا إلى الشّقة، عند بوابة الجدار المحوّط بالبناية رفعت رأسي إلى الأعلى، سحب كثيفة من الدّخان تغشى السّماء، الأمر أشبه بالخراب. الحرائق لا تبعد كثيرًا عني، الحي الذي أقيم به يقع أسفل غابات سرايدي مباشرة. الآن اقرأ على موقع أصوات مغاربية خبرا عاجلا: «مصرع ٢٥ جنديًا جزائريًا أثناء عمليات إنقاذ مواطنين في حرائق تيزي وزو وبجاية/ المصدر: رئاسة الجمهورية الجزائرية». خوفي يتعاظم على أخي العربي رجل الإطفاء، وهو يصارع النيران مع زملائه البواسل الآن في جبال وغابات إيدوغ وعين بربر بسرايدي. أخذت الريمود كونترول وبدأت أطوف كالمخطوف بين القنوات المحلية لأشاهد تفاصيل جديدة عن الحرائق أو صور مباشرة من الأماكن التي اندلعت بها تلك الحرائق. لم أعثر سوى على برامج هابطة وساقطة تبث الآن بكل بجاحة وقلة حياء. القنوات التي أعطت الشّرعية لنظام فاشل وعاجز عن تقديم الحلول منذ ما ينوف عن السّتة عقود كاملة، والآن تلك القنوات الساقطة بدل متابعة أحداث المأساة التي حلت بعدة مدن، ها هي تواصل برامجها العفنة وتهريجها وقبحها. كان يكفيها إعلان الحداد، أو الصمت على الأقل احتراما لمصائبنا وأحزاننا. الجميع على حافة الألم واليأس والجنون، الحرائق تلتهم أعماقنا وأرواحنا وأفئدتنا. تبًا لبؤسها وعماها

وصممها! لم تعد الكلمات تجدي نفعًا لوصف ما حل بنا من كارثة أو دمار أو مأساة أو خراب. الأجدر للواحد أن يتظاهر بالغباء والسّذاجة كي يحافظ على سلامة عقله. في الجزائر الجديدة: الغلاء، الوباء، الحرائق، العطش، الموت اختناقا... وماذا بعد !؟

السّاعة العاشرة ودقيقة واحدة ليلًا، الموبايل بين يدي وأنا أتصّفح على الفايسبوك بتقزز ونفور: عويل، بكائيات، لطم، استكانة، هلع، وغيرها من سلوكات ومظاهر من يجلسون في غرف مكيفة لإدارة الأزمة من خلف شاشات حواسيبهم أو موبايلاتهم! سادة الكلام والنّباح والصّراخ والضّجيج. تتغيّر ألوانهم، ولا تتغيّر عاداتهم وأنماط سلوكاتهم! لا يقدمون أيّ قيمة مضافة، عدا أنّهم مصابون بداء الكلب. ينجرون خلف تحليل الأحداث الرياضية والسياسية والثقافية والاجتماعية والجيو إستراتيجية والايكولوجية والصحية، وغيرها. خبراء بكل المجالات، يفهمون في كل شيء! يسبون، يشتمون، يبكون، يخونون، يلعنون، تلك أهم أدواتهم، لا شيء آخر غير بحثهم عن الإثارة من وراء أيّ خبر أو حدث جديد يصلهم. رميت الموبايل جانبًا، وارتميت على السّرير ناقمًا من هذا المناخ الخرائي والممعن في القذارة والعفن.

33

٢٠٢١/٨/١١

السّاعة الواحدة وثلاث دقائق زوالًا، كان الجوّ ملتهبًا، لكنّه أفضل حالًا من البارحة، الشّمس ملفوفة بسحب حمراء وأخرى لا لون لها. وجوه النّاس متعبة، على قلة من صادفتهم. تظهر الشّوارع مقفرة، والمحلات فارغة من المشترين. تبدو المدينة جرداء، حدباء، ملتهبة كصحراء أو كقطعة من الجحيم. السّاعة السّادسة وواحد وخمسون دقيقة، استبد بي الضّجر بين جدران الشّقة. الأمر الذي دفعني إلى التّفكير في الخروج من ضيق الشّقة. النّاس في الشّوارع أقل التزاما بارتداء الكمامات الصّحية مقارنة بالأيام الماضية، لست أدري هل الحرائق الملتهبة الآن في أعالي الايدوغ وعين بربر أنستهم الوباء، أم أن لهيب الحر دفعهم للاستغناء عن الكمامات الصحية؟ مررت على أتوليه صديقي الفنان تمتام، لم انتبه لمضيِّ الوقت. السّاعة الثّامنة إلا عشر دقائق، هرعت مهرولًا إلى الشّقة فلم يتبقَّ أمامي سوى دقائق معدودة قبل بدأ زمن الحجر في الثّامنة ليلًا بالضّبط.

التّاسعة وتسع دقائق ليلًا، أشاهد فيديو يصوّر القبض على مشتبه به في إشعال حريق في غابة ببلدية الأربعاء ناث إيراثن، تقع بمدينة تيزي وزو. ثم فيديو آخر للركلات وهي تنهال عليه من قبل النّاس (من كلّ الجهات) وهو داخل سيارة الشرطة، ومن بعد كيف اختطفوه، ثم ضربوه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ولاحقا أحرقوه ونكلوا به بطريقة احتفاليّة غريبة، وبعد ذلك التقطوا مع الجثّة المتفحمة صور سلفي. من أين أتت تلك الهَمَجيّة، والتوحّش، والحيوانيّة؟ هل الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد جماهير غاضبة وراغبة في الانتقام، أم أن غياب السّلطة عن ممارسة أدوارها ومهامها جعل من حشود الجماهير العمياء والهائجة تقتص بنفسها، أم أن فقدان شرعية ومصداقية النّظام الحالي دفع تلك الحشود البدائية إلى البحث عن قربان أو شماعة تعلّق عليها أسباب كل مآسينا والأزمات التي مرت بنا؟ أم هناك أسباب أخرى تحتاج إلى دراسة عميقة من قبل علماء ومختصين في علم نفس وسلوك الإنسان الجزائري المعاصر؟

السّاعة العاشرة ليلًا، الصّور والأخبار تترى حول جمال بن إسماعيل المشتبه به في إضرام النّيران، اتضح بما لا يدعو للشك أنّ الشّاب المسكين ذهب إلى مدينة تيزي وزو متطوعًا لإخماد النّيران ومساعدة المتضررين، بصفته فنانًا (موسيقيًا ورسامًا) ومواطنًا آلمته المأساة التي حلت بمنطقة تيزي وزو، وعاد إلى مدينته مليانة جثة متفحمة. الجهل أشدّ عداوة من النّار! يفعل الجهل بنا أكثر مما تفعله الحرائق وجل الأعداء مجتمعين.

33

٢٠٢١/٨/١٢

أفقت على خبر عثور مصالح الحماية المدنية في قرية (إخليجن) التّابعة لبلدية الأربعاء ناث إيراثن في ولاية تيزي وزو على شقيقتين (سارة و جوهر)، متفحمتين ومتشبثتين بجثة والدتهما التي توفيت اختناقًا، جراء استنشاقها للدخان هربًا من الحرائق التي اندلعت هناك.

السّاعة السّابعة وربع بعد الزّوال، خرجت من الشّقة لاقتناء بعض مستلزمات المعيشة، الشّوارع والأحياء التي مررت بها شاحبة، والوجوه التي صادفتها مثقلة، وغير مبالية. كان الجوّ مختنقًا، والسّماء تغشاها الحمرة والخواء. الهواء ملتهب بفعل استمرار لهيب الحرائق في التهام ما تبقى من الأخضر واليابس، وامتداده إلى البيوت والمنازل والممتلكات غير البعيدة عن الغابات والجبال. النّاس يتهافتون على المطاعم والمتاجر بشكل جنوني. كانت أثوابي مبللة كأنّني غطست في حمام من العرق، دفعت حساب مقتنياتي لموظف الصّندوق، وحالما كنت على أهبة الخروج، رأيت كهلًا أصلع الرّأس، يمد يده اليمنى إلى الرّف المقابل أين وضعت علب النّسكافيه

الزّجاجيـة باهظـة الثّمـن، مرصوفـة بجنـب وفـوق بعضهـا، وبحركـة مسـتعجلة منـه انفرطـت تلـك الصّفـوف والطّوابـق، وتسـاقطت بعـض العلـب. الزّجـاج متناثـر عـلى أرضيـة المتجـر وسـط بُـنٍّ النّسـكافيه المبعـثر، والرّجـل المسـكين مـازال ملتصقًـا بالـرّف ومشرّعًـا ذراعيـه، محتضنًـا بقيـة العلـب خشـية أن تسـقط. كان متوتـرًا، ومرتبـكًا، تغشى وجهـه الصّفـرة، وهـو يطلـب الدّعـم مـن الموظـف. خرجـت عـلى عجـلٍ ومشـهد ملامـح وجهـه بقـي عالقًـا في ذهـني.

35

٢٠٢١/٨/١٣

صحوت في السّادسة والنّصف صباحًا، بقيت في الفراش طيلة ثلاث ساعات كاملة؛ في نوم متقطع، لا يخلو من الكوابيس المستمرة. في العاشرة والنّصف، تركت الفراش، استحممت، تناولت فطوري. أجلس إلى الطّاولة، أختار الكرسي المقابل للكرسي الذي اعتدت الجلوس عليه، النّافذة خلف ظهري. شغلت التّلفاز، لا شيء يستحق المشاهدة. أخذت الموبايل من الكومود على يميني، تصفحت الفايسبوك، صادفتني رسالة النّاشرة آسيا علي موسى، بدأت أقرأ ما كتبته، أقف مطولًا عند المقاطع التي تتحدث فيها عن الوباء: «... أقرا عن الكوفيد، أعيش فصولًا كثيرة من عذاباته وخراباته ولكن حين أخرج إلى الشّارع، حين أزور أبي المريض.. حين أغلق الشّاشة، تعود حواسي إلى أماكنها الطبيعية. يجد الحزن مكانه والفرح مكانه ويتلاشى وهمهما... فأشعر أن الضّياع الحق والوهم الحق والعذاب الحق أن تعيش عذابات النّاس كلّها وان تحمل على ظهرك ثقل هموم كلّ الخلق معرضًا

قلبك لانكسارات كبيرة وروحك للجراح تنكّل بها فضاءات تسرق عمرنا وتُلبسنا السّواد والتّفاهة.. هذه الفضاءات في أيدي كل عابرٍ أحمق وفي يد كل شيطانٍ رجيمٍ، بينما غير بعيد تنام الحياة في انتظار أن نوقظها.. الكثير من الألم حولنا يحتاج دفء أيدينا، والكثير من الفرح علينا أن نصنعه.. لطالما كانت الدنيا صراعا طويلًا ومستميتًا بين الخير والشّر...».

بالضّبط أضحت فضاءات التّواصل الاجتماعي وعلى رأسها الفايسبوك ملاذًا للحمقى والتّافهين، تنافس الوباء المتفشي والحرائق الملتهبة الآن في غاباتنا على إحراق عقولنا، وما تبقى لنا من صبر، وقدرة على المقاومة والبقاء. إغراقنا في ركام من الشّكاوى والآلام والمآسي، قد يقودنا في نهاية المطاف إلى كآبة مزمنة أو جنون مؤكد. حتى وإن نجونا، فحتمًا لن نعود كما كنا من قبل!

السّاعة الثّانية عشرة وخمس دقائق، لست بخير، على الشّاشة يعرض فيلم (مع الذكريات) بطولة أحمد مظهر ومريم فخر الدين. أحيانًا أنغمس كلية مع أحداث الفيلم، مشغولًا بالديكور، ومسار تحرك الكاميرا، وغيرها من التّفاصيل الأخرى التي شدت انتباهي، لست أدري لماذا شعرت أن هذا الفيلم أنجز في ذلك الزّمان على طريقة السّينما الأمريكية. وطورًا أنقطع عن المتابعة وأغرق في التّفكير، ساهيًا عن جلّ ما حولي. لست من هواة متابعة الأفلام المصرية، ومع ذلك أعتقد أنّ ما أنجزته السّينما المصرية الكلاسيكية أجود بكثير من السّطحية، والضّحالة، والتّكرار، والتّفاهة، التي غرقت فيها تلك السّينما اليوم،

للأسف الشديد!
السّاعة السّابعة وتسع دقائق بعد الزّوال، رأسي يكاد ينفجر، أشعر بصداعٍ حادٍ جدًا. لم أخرج اليوم، الجمعة متعبة جدًا. أنا في عزلة، القلق، التّوتر، الرّعب، الغروب، الحرائق، الوباء، أشعر بأنّ جدران الشّقة تزداد اتساعا، تكاد تكون أكثر سمكًا من الشّقة في حد ذاتها. لا تكسر صلابتها محاولة التّظاهر وإقناع نفسي بأنّني بخير، ولا محاولة التّسلية عن النفس وتجزية الوقت بمشاهدة الأفلام، أو بمتابعة وسائل التّواصل الاجتماعي.

36

٢٠٢١/٨/١٤

صحوت باكرًا. نهضت مترنحًا. قصدت الحمام. رجعت إلى الفراش. كنت بين اليقظة والنّوم، متعبًا ومتهالكًا ومحبطًا، كأنّ جلّ أثقال الكون فوق ظهري. ما أجمل العودة إلى الوضع الطّبيعي، الثّابت، السّتاتيكي الذي كان يضجرنا قبل الوباء. أقصد الحنين إلى الماضي، هذا الوباء اللعين يجعله نصب أعيننا، يزينه لنا. ما أجمل الماضي لو توقف الوباء في نقطة ما، ولن نحتاج إلى تاريخ جديد يبدأ من نقطة أخرى، سيكون الماضي هو الأكثر رحابة، وحنوًا، وفرحاً، وبهجةً، وانفتاحاً، وتحرراً... هذا القلق، والإحباط، والاعتزال الذي نعيش لا يقودنا إلى الماضي فحسب بل يزيدنا شغفًا، وانتظارًا، وترقبًا، وقلقًا أيضاً، لما نعجز عن التّقدم خطوات إلى الوراء، ولا نقوى أن نكابر، أو نتظاهر بالقوة. ونسعى قلقين ومحبطين نحو حتفنا، يذبحنا الزّمن الموبوء، البائس، كأنّ الموت على بعد خطوة، أو ينتظرنا عند أقرب منعطف. الريح لا تبعث على عودة الأمل، الريح تنقل العدوى، الوباء، الموت القادم من المجهول.

السّاعة الثّانية عشرة ونصف، الموبايل يرن، يظهر اسم زميلي زرفة على الشّاشة. يا إلهي، انفجرت بؤر الوباء بشكل جنوني في المدينة التي أعمل بها، العديد من الزّملاء أصابتهم العدوى، منهم من توفاه الأجل، ومنهم من يرقد الآن بالمستشفى، ومنهم من يعاني في بيته! استغرب زميلي انقطاعي وتفاجئي بسماع تلك الأخبار! أنا في عزلة تامة ومنقطع عن كلّ شيء، خصوصًا إذا كان يمت بأدنى صلة إلى العمل. تألمت، وأحزنتني كثيرًا تلك الأخبار المفجعة. اتصلت للاطمئنان بمن تمكنت، وسألت عن صحة من لم تسعفني الظروف للتواصل معهم، وتمنيت الشّفاء العاجل بكل جوارحي للجميع.

السّاعة الثّانية وأربع وثلاثون دقيقة زوالًا، خرجت من الشّقة في عز قيظ القيلولة، بدأت تنفد المؤونة، نفد الخبز وجزء كبير من الطعام، الأمر الذي استدعى خروجي في هذا الوقت بالذّات، طبعًا الحاجات الفيزيولوجية قبل حاجات الأمن والسّلامة. الجوع قبل الخوف. اقتنيت الخبز والتين الشوكي، والمثلجات، واللحم المطهو، والبيض، والطّماطم، والقهوة، والجوز، وغيرها من المقتنيات الأخرى. عدت أدراجي في السّاعة الثّالثة والنّصف زوالًا. استحممت، التهمت علبة مثلجات، وارتميت على السّرير.

السّاعة الخامسة والربع زوالًا، كان ستار الغرفة مسدلًا، أخذت الريمود كونترول، ها أنذا أتابع الآن في فيلم (The Tourist)، طردا للملل والكآبة. سبق وشاهدت الفيلم، ومع ذلك أعدت متابعته، ببال مشغول وذهن مشتت.

تـراودني الآن جملـة تسـاؤلات مقلقـة: هـل الكتابـة نـوع مـن أنـواع التّطهـر كما يعتقـد هـنري ميلـر، هـل بإمكاننـا أن نلفـظ سمومنا الخاصة من الآلام والنّكبات والهزائم والأخطاء على الورق حتى نستطيع الحياة بعد ذلك؟ أم هل يعدو ذلك مجرّد مبالغة لا علاقة تربطها بالواقع الصّادم، القاتم، المتوحش، والممعـن في العمـى؟ في الجهـة المقابلـة هنـاك مـن ينفـث سموم الكراهية وحروف الفتنة على صفحات الجرائد ووسائل التّواصـل الاجتماعـي. جاعـلًا مـن حروفـه وكلماتـه حطبًا لإثـارة النعـرات والصّراعـات بـين الأمازيـغ والعـرب في هـذا الظّـرف الحساس الذي يمر به البلد، مستغلًا مقتل الفنان الموسيقي والرّسـام التّشـكيلي جمـال بـن إسـماعيل (العـربي الأصـل) بتلـك الوحشـية مـن قبـل حشـود مـن الأمازيـغ. كمـا اسـتغل مـن قبـل الربيـع الأمازيغـي، وكل شـماعة أخـرى علـق عليهـا سـمومه. وطبعًـا حـتى في الجهـة المقابلـة، هنـاك مـن يقـوم بالأدوار عينها وبتفان منقطع النّظير في تدمير الذات. المثقف الجبـان والحشـود السـاذجة. لمـاذا العقـل الجزائـري خصوصًـا، والعقل العـربي علـى وجـه العمـوم مجبـول علـى الخـراب وإفسـاد العمـران؟ هـل يجـدر بنـا التّوقـف عـن إخمـاد النّيـران المشـتعلة في الجبال والغابات والتّفرغ بدلًا من ذلك لإخماد نيران الفتن الأشـدُّ ضـراوةً وفتـكًا؟ الوهـم، العنصريـة، الكراهيـة، الحقـد، كلّهـا أمـراضٌ تؤجـل لحاقنـا بركـب المجتمعـات المتقدمـة! لا أدري لمـاذا تذكـرت في هـذه اللحظـة تلـك الأسـئلة المتكـررة والأثيرة لدى الإنسان الجزائري كلّما صادف شخصا غريبًا، أو التقى بشخص لم يسبق وأن رآه: «مـن أيـن أنـت؟»، و»مـن أي

جهـة؟»، أو «مـن أي منطقـة؟».

السّـاعة السّادسـة وعـشرون دقيقـة زوالًا، فكـرت بالاتصـال بأخي العـربي رجـل الإطفـاء، فقـد قـضى لياليَ بأكملها في أعـالي غـابات عـين بربـر لإخماد النيران الملتهبة. الشيء الذي أعطـى بعـض الدّعـم لفرقتـه كمـا سـبق واخـبرني؛ هـو تكاثـف الجمعيـات الأهليـة للمسـاعدة وإمدادهـا بالميـاه المعدنيـة والمـشروبات البـاردة. جيِّـد أنّـه بخـير، ومـازال طيلـة الليلتـين القادمتـين في إطفـاء وإخمـاد النّـيران الـتي امتـدت إلى برحـال وذراع الريـش بعنّابـة.

37

٢٠٢١/٨/١٥

من شدّة التّعب والإرهاق لا أتذكر كيف استسلمت لسلطان النوم ليلة البارحة. راودتني الأحلام والكوابيس، ومع ذلك واصلت النّوم إلى غاية السّاعة الحادية عشرة صباحًا.

السّاعة الثّانية زوالًا، مذيع قناة الجزيرة الإخبارية يعلن عن تزامن سيطرة حركة طالبان على جزء كبير من أفغانستان ووقوفها على تخوم العاصمة كابل، مع عبور مواطنين أفغان الحدود باتجاه باكستان عبر معبر «بوابة الصداقة»! يبدو أن عودة الإرهاب والعنف (من المرجح أن عدواه ستنتقل من هناك إلى بقية دوّل العالم)، قد تزامنت مع عودة الوباء بشكل أكثر فتكًا بالأرواح البشرية. كأنّه لم يكف الإنسان المقيم في العالم الثّالث أو الأخير جلّ اللعنات والمآسي التي لحقته؛ من التّخلف، والوباء، والجهل، والمرض، والفقر، حتى يضاف إلى مآسيه المتناسلة الإرهاب، خصوصًا في هذا الوقت بالذّات، زمن الوباء! فلا فرق بين تنظيم طالبان وتنظيم داعش.. عدا فرق وحيد؛ عَلم داعش أسود اللون، في حين عَلم طالبان لونه أبيض!

السّاعة الرّابعة وخمسون دقيقة، القنوات المحلية تعرض فيديوهات لاعترافات مجموعة من عشرات المتهمين بقتل وحرق وقطع جثة الفنان الموسيقى والرسام جمال بن إسماعيل والتنكيل بها، هم الآن رهن الاعتقال والتّحقيق من قبل الأمن الوطني. والمفارقة غير المتوقعة وغير القابلة للتصديق، إنّ من بين هؤلاء الموقوفين والمتهمين بقتل الضحية؛ هناك أستاذ شريعة إسلامية، ومحام، ومدير مدرسة، وممرضة بمؤسسة استشفائية بولاية تيبازة! ما سبب الهمجية والانحراف السلوكي والاجتماعي لدى الجزائريين؟ وما هي مسوغات غياب روح المواطنة والحس المدني الحضاري في غالب الأوقات وظهورهما فقط في الكوارث والأزمات الطارئة؛ كزلزال بومرداس، وفيضانات باب الواد، وحرائق خنشلة وتيزي وزو، وأزمة الأكسيجين في المستشفيات العمومية؟

38

٢٠٢١/٨/١٦

يوم آخر جديد، الحرائق لا تزال مستمرة بشكل أو بآخر؛ حرائق الغابات، وما خلفته من خسائر باهظة في الأرواح والممتلكات والثّروة النباتية والحيوانية. حرائق أخرى تغذيها فتن عنصرية وإثنية، حطب الخطابات العنصرية والقبلية والجهوية المقيتة المنتشرة على مواقع التّواصل الاجتماعي، المهددة لأمن واستقرار البلاد ككل. علاوة على حرائق يحدثها الفيروس اللعين في النّفوس التي فقدت عزيزا أو قريبًا. فضلا عن كلّ ذلك، اشتعلت شرارة حرائق الإرهاب مرة أخرى بأفغانستان. ما ينذر بخطر وشيك على العالم ككل، فهذا البلد كان فيما مضى منبعًا لعولمة الإرهاب، ساهم في تصدير ثقافة وسلوك وممارسة الإرهاب إلى كل جهات الأرض. إذ بدت شوارع كابول مهجورة، اليوم الاثنين، بعد يوم من سيطرة حركة «طالبان» المتشددة على العاصمة الأفغانية دون قتال أو أدنى مقاومة تذكر. الفيديوهات المنشورة على

الإنترنت تظهر مئات المدنيين تكدسوا في المطار سعياً للهرب، حاملين أمتعتهم وحقائبهم، وقد فر قبلهم رئيس البلد والقيادات وقوات الجيش، حاملا معه حقائب مليئة بالأموال والثّروات. ومشاهد موت بالجملة، مخزية ومؤلمة في الوقت ذاته، جراء سقوط مواطنين أفغان من الطائرات، كانوا قد تشبثوا بها قبل الإقلاع. أكبر خطر يواجه العالم الإسلامي هو اجتماع الغباء مع التخلف والاستبداد! أحد قادة طالبان يقول لمراسلة (CNN) أمش بجانب الطّريق وليس في منتصفه، لأنك امرأة! وصرح وكأنّه يزف بشرى سارة: «سنسمح للنّساء بالتّعليم والعمل بشرط الحجاب». استفسرت المراسلة: «هل تقصد الحجاب الذي ارتديه». قال: «لا، الحجاب هو النقاب»! أشعر بالذّعر وأنا على بعد آلاف الأميال من أفغانستان، لا يمكن تصوّر كيف يقضي هذا الشّعب ليلته، وقد أصبح الذّعر بالنّسبة له فعلًا يوميًا منذ سيطرة طالبان.

السّاعة السّادسة وثلاث وخمسون دقيقة زوالًا، خرجت من الشّقة. اقتنيت بعض المشتريات. عدت أدراجي مهرولًا. السّاعة الثّامنة وربع ليلًا، تجاوزت زمن الحجر بربع ساعة. تناولت وجبة العشاء. شاهدت فيلم (12Strong)، حول أفغانستان وطالبان والجيش الأمريكي. يستعيد الفيلم تداعيات أحداث 11 سبتمبر، من خلال إنزال مجموعة من أفراد القوات الخاصة الأمريكية في أفغانستان، في مهمة خاصة، أين يتعاونون مع إحدى القبائل الأفغانية لتحقيق الهدف الذي قدموا من أجله، وهو التّخلص من قوات حركة طالبان

الـتي تنفـذ عمليـات ضـد الأمريكيـين في أفغانسـتان.
السّـاعة التّاسـعة ليـلًا، منـذ أكـثر مـن أربـع سـاعات مستشـفى ابـن سـينا (Caroubier) بعنّابـة دون أكسـجين. خطـر المـوت يهـدد المصابـين بالـوباء!

39

٢٠٢١/٨/١٧

السّاعة الحادية عشرة صباحًا، شاهدت فيديو لمجموعة شباب من مدينتي (عنّابة) يحرضون على/ ويخونون جلّ ساكنة مدن الأمازيغ القبائل (خصوصا مدينتي تيزي وزو وبجاية بالقبائل). رائحة العنصرية النتنة تنبعث من جديد فوق روائح الجثث المتفحمة التي التهمتها النيران، وروائح الجثث التي فتك بها الوباء اللعين، تغذيها خطابات وفيديوهات ومنشورات الكراهية ضد منطقة القبائل. هناك من يرغب في الاصطياد في المياه العكرة لاغتيال الفنان جمال بن إسماعيل بتيزي وزو.

السّاعة الواحدة وأربعون دقيقة زوالًا، تصفحت على الفايسبوك النّسخة المصورة من الشّكوى التي أودعها اليوم الثلاثاء ١٧ أوت، مكتب عنّابة للرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان، لدى وكيل الجمهورية بمحكمة عنّابة، لمقاضاة هؤلاء الأشخاص الذي يظهرون في ذلك الفيديو التحريضي والمسيء.

المنسوب المرتفع من تلك العقد والأمراض ليس وليد اللحظة، أو مأتاه تلك الحادثة الأليمة فقط، بقدر ما هو ضارب في عمق تركيبة الإنسان الجزائري المتناقضة؛ فيمكن أن تعزى أسبابه إلى تراكمات، احْتَدَّت، واسْتَفْحَلَت، وتَعَاظَمَت، وتَفَاقَمَت، وتَفَشَّت مع مرور الزمن، ساهم الاستعمار والسّلطة القائمة، والجهل المركب، والطّبيعة الحادة والخلفية القبلية والعروشية والشّعبوية في جزء كبير من تلك المأساة.

لم يمتلك أيّ منا الشجاعة الكافية لمواجهة الأمر علنًا، قصد معالجته أو محاولة تفكيكه على الأقل. فهو أشبه باللغم الذي يبقى على أهبة الانفجار في أيّ وقت قد يتم فيه الدوس عليه؛ اليوم تهيأت الفرصة الملائمة لكي تطفو مجددًا أمراض الكراهية والعنصرية على السّطح دفعة واحدة. كم يلزمنا من وقت أو من صبر وسط مناخ من التَّفَرُّق، والتَّبَعْثُر، والتَّوَزُّع، والتَّناثُر، والتَّشَتُّت كي يدرك الإنسان الجزائري مهما كانت إثنيته أو عرقه أنّ الوطن للجميع، ولا يُمكن أنْ يكون له وحده..!؟

السّاعة الخامسة زوالًا، تسرب إليّ الملل والضّجر من جراء البقاء طيلة النّهار بالشّقة. قررت الخروج. كان الطّقس بالخارج ألطف والحرارة منخفضة مقارنة بالأيام الماضية، مع بعض الرطوبة. اجتزت شوارع وأزقة سانطنة، ومركز الأمن الثّالث، وشارع ثانوية القديس أوغسطين، ومنعطف سينما إفريقيا، كانت جلها تقريبًا شبه خالية. وحينما مررت على حديقة الحرية وجدتها مليئة بحشود الزّوار، والأطفال مشغولين بألعاب الملاهي هناك، غير آبهين لا بمخاطر

العـدوى وانتشـار الفـيروس، ولا بأيّ موضـوع آخـر يشـغل بال الكبـار.

السّـاعة السّـابعة إلا ربـع بعـد الـزّوال، حالمـا دخلـت سـوق الحطـاب المغطـى لـشراء الخضـروات والتوابـل، تفاجـأت؛ إذّاك وجدتـه يعـج بالمتسـوقين، لا تـكاد تجـد موطـئ قـدم جـراء الزّحمـة! السّـاعة السّـابعة وأربعـون دقيقـة رجعـت أدراجي. وقتمـا دخلـت الشّـقة، اسـتحمت. لا حقًـا، ارتميـت عـلى السّريـر، وتسـمرت أمـام التّلفـاز لمشـاهدة العـرض الأوّل مـن الفيلـم التجـاري (سـبع البرمبـة)، بطلـه رامـز جـلال صاحـب برامـج الكاميـرا الخفيـة الأعـلى تكلفـة والأكـثر تهريجًـا وضحالـةً في المنطقـة العربيـة. مازلـت عنـد رأيي فيمـا يتعلـق بسـطحية الموضوعـات والمشـاهد في السّـينما المصريـة المعاصـرة، ومـع ذلـك غامـرت، لا شيء آخـر يسـتحق المشـاهدة.

40

٢٠٢١/٨/١٨

الساعة العاشرة والنّصف صباحًا، مضى وقت طويل لم أغادر الشّقة صباحًا، الشّوارع ممتلئة بالمارة، اليوم ليلة عاشوراء، دأب الجزائريون على الاحتفال بالذكرى بإعداد وليمة عشاء. حالما وليت وجهي أجد الزحمة والاكتظاظ. مررت بمحاذاة مكتبة الثّورة، تبادلت أطراف الحديث مع صديقي شريف حجار صاحب المكتبة، ثم واصلت السّير، إلى أن قطعت الطّريق إلى الرّصيف المقابل أين ترتصف المقاهي المظللة بأوراق أشجار الفيكوس في ساحة الثّورة أو الكور كما يطلق عليها أبناء المدينة. قطعت مرة أخرى إلى الرّصيف المقابل والمسقف، طوابير طويلة عند مدخل المقر الجديد لبنك بدر أسفل الأقواس، ثم عبرت زقاق فرعي بمحاذاة فندق التورينغ، اجتزت حانة ماكسيمز، انعطفت يمينًا إلى أن وجدتني أعبر وسط احتشاد وضغط جمهور كبير من الباعة والمشترين والمتسكعين، في سوق قائم بذاته لبيع الملابس والمتاجرة بالأغراض المستعملة والقديمة بالسّاحة المقابلة لإكمالية

جورج إسحاق. في حي لاكولون اكتظاظ عند متاجر بيع الخضر، وازدحام المشترين في محلات اللحوم والدّجاج، وطابور طويل عند مدخل مركز البريد، وآخر عند الموزع الإلكتروني لسحب الأموال، تكدس النّاس هناك إلى درجة غلق الرّصيف. زرت صديقي الفنان التّشكيلي تمتام في الأتوليه، ثم عدت أدراجي إلى الشّقة، تناولت حساء الشوربة وطبق لوبيا خضراء، وبعد ارتشاف القهوة، أطفأت التّلفاز واستسلمت للقيلولة.

السّاعة السادسة وربع زوالًا، انتبهت لعدة اتصالات على شاشة الموبايل كانت قد وصلتني من أبي. حالما أعدت الاتصال به، أخبرني بأنّ أخي في الطّريق، وقد أحضر معه عشاء ليلة عاشوراء. وكان أبي قد دعاني اليوم صباحًا لتناول وليمة العشاء في بيته، ولما اعتذرت أخبرني أنه سيرسل لي نصيبي من العشاء مساء إلى شقتي. عندما تفقدت محتويات القفة انبسطت أساريري، فقد وجدت الأطباق التي أشتهيها، من وجبة الشخشوخة التقليدية مع كامل ملحقاتها، وحساء شربة الفريك، إلى قارورة عصير الليمون، وفاكهة العنب والموز والخوخ والتين الشوكي، وغيرها. السّاعة السابعة وأربعون دقيقة شرعت النّافذة على مصراعيها، قابلني منظر المدينة ليلًا، البنايات مرصعة بالأضواء الخجولة، والسّماء يتوسطها القمر بنوره ورهبته، كان مشهدًا لا يتكرر كثيرًا مع نسمات الليل المنعشة، ومع ذلك تركت مكيّف الهواء يشتغل.

41

٢٠٢١/٨/١٩

أفقت في السّاعة الثّامنة صباحًا. مذ فترة لم أصح أو أنهض باكرًا. تناولت فطوري، وتسمرت أمام التّلفاز. أمام سيل البرامج المكررة، والمجترة، والمنفرة، أخذت الموبايل، وبدأت أتصفح منشورات الفايسبوك لتزجية الوقت وقتل الضّجر. شاهدت وقرأت عشرات منشورات وتعليقات العامة والدهماء والحمقى الذين تعج بهم وسائل التّواصل الاجتماعي، تجدهم أكثر عاطفة وتهورًا في تخوين الآخر، على أساس اختلاف اللغة أو الإثنية أو المنطقة. يطلقون العنان لشياطين اللعن والسّب والشّتم دون أدنى تردد أو رادع، فهم أكثر استعدادًا لإشعال فتيل العنصرية والفتنة، وهم أكثر قابلية للانقياد والتّبعية والخضوع وتسليم رقابهم لأيّ قوّة أو سلطة مستبدة وغاشمة. لا يشاهدون في التّلفاز سوى البرامج الرياضية ومقابلات الدوري الإسباني، يرتادون المقاهي، ويشغلون الفضاء العام صباح مساء، يتبعون خطوات النّساء والفتيات في الشّوارع، ويسندون ظهورهم على جدران البنايات، ولا يعرفون شيئاً عن المواطنة والحرية

والحق في الاختلاف، ولهذا فهم لا يدركون أيضًا خطورة ما يقدمون عليه، إنّهم لا يرون في الفئات المختلفة عنهم سوى علمانيين أو مجرد زواف، أو خونة وأذناب استعمار، ويعتقدون أن حركة طالبان تطبق الشّريعة وأتت لتحرير أفغانستان من الاستعمار الأمريكي، وفي الجهة المقابلة هناك فئة أخرى منهم ترى المواطنين من الإثنيات غير الأمازيغية مجرّد دخلاء محتلين، ويجب أن يخرجوهم من بلدهم أو ينفصلوا عنهم مهما كلفهم الأمر. لهذا كل منطق سليم، أو حجة دامغة، لا تجدي نفعاً معهم، ولا طائل من ورائها.

السّاعة التّاسعة والنّصف صباحًا، خرجت من الشّقة، كانت الشّوارع خاوية على عروشها، والمتاجر التي مررت بها شبه فارغة، عدا بعض المارة هنا وهناك؛ أغلبهم من كبار السّن. عمال البلدية يكنسون الأرصفة. ورجال الشّرطة عند نواصي الشّوارع ومفترقات الطّرق. والمتسولون الأفارقة من المالي والنيجر موزعين بإحكام على الشّوارع والأرصفة برفقة أطفالهم. ازدادت الكثافة والازدحام بعض الشّيء حالما وصلت إلى شارع الأمير عبد القادر في وسط المدينة، بينما كنت شارد الذّهن ومشتت البال، غارقًا في التفكير فيما ستكون عليه الحياة الجيدة أو الجديدة بعد الوباء؟ أم هل سيلازمنا هذا الوباء مدى الحياة؟ هذان سؤالان لا يمكن لأيّ كان الجزم بشأنهما، أو يستحيل لشخصين أن يعطيا نفس الإجابة عليهما. ففي هذا الزمن المثير للازدراء والقرف، لا يمكن أن نكابر أو ننكر عظمة الحياة التي كنا نحياها قبل اقتحام الفيروس اللعين تفاصيل يومياتنا، ومع ذلك مازال هناك

مـن يمـارس التعصّـب الجهـوي، أو المحـليّ، أو الإثـني، ويمجّـده، لذلـك، تلاشـت الرّوابـط، والعلاقـات، والوحـدة الوطنيـة، لـم نعد كجزائريين نستطيع أن نتفق على أمور كثيرة. ففي زمننا البـدائي، البئيـس، والمنحـطّ، لا يهتـم المواطنـون بـشيء عـدا التّبجـح والمباهـاة بمجـد، أو تاريـخ، أو جـذور وهميـة، وسـيزعم أنـاس تافهـون متحذلقـون أنهـم شعـب الله المختـار أو السّـكان الأصليـون، معتقديـن أنفسـهم كزعمـاء عظمـاء ووطنيـين، محبّين للخير، يعملون للمصلحة العامة، أنّ ذلك بمثابة نضال سـيخدم قضيتهـم (التافهـة)، ضـد جميـع المعارضـين، والخونـة، والكذابـين، والتافهـين، والأغبيـاء. وعـلى عكـس مـا يدعـون تمامـاً، هـم مجـرد سـذج، ومنحطـين، وغشّاشـين، وفاسـدين. إنّنـا منقسـمون إلى فـرق متنافـرة، ومتصارعـة، ومتعاديـة. كل فرقـة تنافـق، وتحتقـر، وتتهكـم، وتسـخر مـن الأخـرى بشـدة!

42

٢٠٢١/٨/٢٠

نمت البارحة بعمق. السّاعة الحادية عشر وخمس دقائق، ما زلت في الفراش. اليوم الجمعة، كالعادة كلّ شيء معطل ومغلق! لا استثناءات على ما دأبنا عليه. تناولت الإفطار. لاحقًا الغداء، ثم استسلمت للقيلولة. خرجت مساء لاقتناء بعض المشتريات. عدت أدراجي. تناولت وجبة العشاء. شاهدت برامج وأفلامًا تافهة.

43

٢٠٢١/٨/٢١

اليوم الواحد والعشرون من شهر أوت، أفقت في الحادية عشرة صباحا، أشعر بآلام حادة في الرأس، لا أرغب في أخذ حبة دوليپران، ومع ذلك لم أقوَ على تحمل الآلام. لا شيء يستحق المشاهدة على التّلفاز، كأنّهم يقومون بذلك عن قصد، لإغاظتنا، أو نكاية فينا. أخذت الموبايل من فوق الطّاولة المحاذية للسّرير، مازالت الحرب الكرتونية التي اشتعلت قبل يومين بين المثقفين العجائز على صفحات الفايسبوك مستمرة ومستعرة! حينما لا يجيدون صناعتهم الإبداعية، ولا يجدون شيئًا ذا قيمة يكتبونه أو يتحدثون عنه، ينخرطون في حروب شخصية تسيء لأنفسهم قبل غيرهم، يفرغون فيها أحقادهم وتراكمات صراعاتهم وعقدهم المضمرة والتي لم تخمد أو تنسى بالتقادم. الأمر لا يعدو أن يكون مجرد إثارة فارغة، للفت الانتباه. لكن المؤسف أنّ تلك الهوشة أتاحت المجال للقطيع والدّهماء والغوغاء لأكل لحوم المثقفين!

هـؤلاء يقيمـون في الفايسـبوك، لا يعرفـون الحقيقـة الـتي تنتظرهـم خـارج أزقـة ودروب الفضـاء الأزرق، الحقيقـة بـكل ألـوان الطيـف! الحديـث اقتصـر عـن تلـك الهوشـة فقـط، فقـد أحجمت حشـود وسـائل التواصـل الاجتماعـي بشـكل مفاجئ عن الحديـث حـول موضـوع الحرائـق، أو حـول جريمـة اغتيـال الفنـان جمـال بـن إسـماعيل، أو عـن معانـاة المـرضى والأطبـاء في مصارعـة الـوباء. انقطـاع تـام عـن متابعـة الحيـاة بـكل تفاصيلهـا اليوميـة، بـكل مسراتهـا وخيباتهـا، أفراحهـا وأزماتهـا، والغـرق في قوقعـة وهميـة صنعهـا مـارك زوكيربيرغ! الحيـاة بـكل ذلـك وأكثر تكمـن خـارج هـذا الوهـم الافـتراضي المعاصـر الـذي سـجنا فيـه أنفسـنا عـن وعـي أو عـن غـير وعـي.

السّـاعة السّـابعة وعـشرون دقيقـة بعـد الـزّوال، كان المنظـر مـن خلـف زجـاج النّافـذة لافتًـا إلى حـد بعيـد، كنـت أتملى ببصـري ذلـك الجمـال الغرائـبي حيـث نصـف قـرص برتقـالي اللـون يظهـر مـن خلـف القلعـة الحفصيـة، ويتصاعـد رويـدًا رويـدًا، مجـرّد ثـوان، إلى أن اكتمـل القـرص الدائـري، المشـع، والنّـوراني. بـدر التمـام. البنايـات والشّـوارع متعبـة، ومثقلـة، ومـع ذلـك حافظـت عـلى مسـحة مـن جمالهـا الآسـر لحظـة الغـروب. السّـيّارات مـن الأسـفل في ذهـاب وإيـاب، وأبـواق سـيّارات الإسـعاف لا تـكاد تتوقـف. منظـر البحـر مـع الأفـق، والليـل يـرخي سـدوله ببـطء، ودلال، وغنـج، يثـير الشّـغف، والرّغبـة في الاكتشـاف والانتظـار، خصوصًـا عندمـا لاحـت أضـواء الميناء كحلـم. بينمـا كنـت أتملى منظـر انعـكاس أشـعة الأضـواء عـلى سـطح البحـر المتـلألئ، إذ داعبتـني نسـمات هـواء نـادرة، ورقيقـة، لحظتهـا أحسسـت

بمساحة أخرى من الألفة، والانتعاش، والانغماس في تلك اللوحة الإلهية العظيمة. إذّاك رددت في قرارة نفسي: وحده الجمال من يجعلنا نتشبث بالحياة.

44

٢٠٢١/٨/٢٢

أفقت في السّادسة صباحًا، كان نومي متقطعًا طيلة ليلة البارحة. ضجيج برأسي. لست أدري لماذا تذكرت غرامشي الآن، وبالذّات ما كان يردده حول مسؤولية المثقف تجاه مجتمعه؛ «المثقف الذي لا يتحسس آلام شعبه ليس مثقفاً». لاحقًا قرأت مجتزأ لافتًا ومعبرًا بدقة عما نعيشه الآن، من كتاب ألدوس هكسلي بعنوان: (العالم الآن؛ مراجعة العالم الجديد الشّجاع)، المقطع يقول: «عند تجمّعهم ضمن الحشد، يفقد النّاس قدرتهم على التّفكير وعلى الاختيار الأخلاقي. تزداد قابليتهم للإيحاء إلى الحدّ الذي تتوقّف فيه عندهم قدرتهم على الحكم بشكل عقلاني على الأشياء، أو التّحكّم في الإرادة الحرّة. يصبحون شديدي الانفعال، ويفقدون كلّ حسٍّ بالمسؤولية الفردية أو الجماعية، كما يصبحون عرضة لذرى ونوبات مفاجئة من الغضب والحماس والذّعر. باختصار، يتصرّف الإنسان وسط حشد وكأنّه تجرّع جرعةً كبيرة من

مسكر قويّ المفعول، ليصبح ضحّية ما كنت قد أسميته «تسمّم القطيع ». مثل الكحول، يُعَدّ تسمّم القطيع عقارًا نشطًا يجعل الفرد يخرج من ذاته. يهرب الفرد المتسمّم ضمن القطيع من المسؤولية، ويتملّص من الذّكاء والأخلاق إلى نوعٍ من اللّاعقلانية الحيوانية المحمومة».

السّاعة الثّالثة إلا ربع زوالًا، بعد أن تناولت وجبة الغداء، سرقت لحظات قيلولة، وها أنذا أشاهد الآن فيلم الهروب، هربًا من الملل والضجر! يمر على الشّريط الأحمر أسفل شاشة التلفاز خبر عاجل، «أصيب أكثر من ٢١١,٢٤ مليون نسمة بفيروس «كورونا» المستجد على مستوى العالم، في حين وصل إجمالي عدد الوفيات النّاتجة عن الفيروس إلى أربعة ملايين و٥٩٥٢٩٧. وتم تسجيل إصابات بالفيروس في أكثر من ٢١٠ دولة ومنطقة منذ اكتشاف أولى حالات الإصابة في الصين في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٩».

من المرجح أن يكون العدد الحقيقي للحالات أعلى بكثير من المعلن عنه؛ فتلك مجرد أرقام رسمية أحصت كلّ من قام بإجراء الاختبارات والتّحاليل ومن رقد بالمشافي، وتشير بيانات وعدة دلائل أخرى منفصلة إلى أنّ العدد الفعلي للوفيات يزيد على الرقم المؤكد بنسبة ٦٠ في المائة على الأقل، أما عن عدد الإصابات بالعدوى فأعتقد أنّه يزيد عن الرّقم الرّسمي بأضعاف مضاعفة للأسباب ذاتها.

السّاعة الرّابعة والربع زوالًا، يصلني صوت المؤذن وهو يرفع آذان العصر، ويؤكد: «الصّلاة في بيوتكم.. الصّلاة في بيوتكم». كنت لحظتها أفكّر؛ هل حقًا ما زلت حَيًّا؟ ما الذي

يجدر بي أو بالجميع أن نفعله؟ كلنا ننتظر القادم أو المجهول، لا تعدو الحياة اليوم سوى موت مؤجل، أو أكثر من مهزلة تنعم فيها الغوغاء. لا شيء سيبقى منا، مطلقًا. يجدر بنا أن لا نبالي، أو أن نتغاضى، وأن نعيش ونحتفي بأيّ لحظة فرح، أو حب، نكاية في الوباء، والحمقى، وهذا الزّمن! هذا ما يزيد في أعمارنا، وينسينا بعض الشّيء ما نحن فيه من خراب، ومن دمار، ومن لعنة.

السّاعة الخامسة واثنان وأربعون دقيقة زوالًا، خرجت من الشّقة. زحمة واكتظاظ السيارات في شارع الأمير عبد القادر، وحشود المارة يحرثون الشّارع جيئةً وذهابًا، وامرأة وسط الطّريق مرتدية كمامة، تزاحم السّيّارات وتلعن وتشتم في خلق الله، داعية إياهم لالتزام بيوتهم، مهددة ومتوعدة. يبدو أنّها مصابة بلوثة جنون، ومع ذلك فهي أكثر حكمة من أكثرهم. تسكعت في شوارع وأحياء المدينة وصولًا إلى الكورنيش. ثم اقتنيت بعض المشتريات. وعند السّاعة السّابعة وسبع وثلاثين دقيقة، قفلت راجعًا إلى الشّقة، حالما وصلت استحممت، وارتميت على السّرير، متسمرًا أمام التّلفاز. البرامج ذاتها، مكررة، وتافهة إلى حد لا يطاق. تناولت وجبة العشاء، ورجعت مرة أخرى إلى الفراش.

45

٢٠٢١/٨/٢٣

صحوت في السّابعة صباحًا، ثم عدت إلى الفراش. غفوت مرة أخرى إلى غاية التّاسعة والنّصف صباحًا. حالما فتحت النّافذة أحسست بنقاء وصفاء الهواء في الخارج، تنفست ملء رئتيّ وأنا أتملى المنظر في الخارج غير آبه بالبرنامج الوثائقي حول (موائل الأنديز)، لا أتذكر آخر مرة استنشقت فيها الهواء خارج هواء المكيّف، أو غير ملوث بالتسربات والعوادم على الأقل. فضلًا عن ذلك تسربت أشعة الشّمس الدّافئة لإنارة أرجاء الغرفة وتعقيمها أيضًا. لاحقًا وضعت الشرشف والغطاء على حافة النّافذة، وجلست إلى الطّاولة مستمتعًا بتعريض أطرافي إلى أشعة الشّمس، لتعزيز منسوب الفيتامين دي لديّ؛ فهو يدخل كدواء ضمن تركيبة علاج الوباء، نظرا لأهميته في تحصين نظام مناعة الجسم. كنت قبل ذلك، قد أطفأت مكيّف الهواء، لست بحاجة له الآن، يبدو أن معدل الرّطوبة في الهواء منخفض

هذا الصّباح مقارنة بالصباحات الماضية، كما انخفضت أرقام الإصابات اليومية بالوباء إلى أكثر من النّصف أيضًا.

السّاعة الواحدة وسبع وعشرون دقيقة زوالًا، الآن فرغت من ارتشاف قهوتي، وها أنذا أتي على كلّ ما بقيّ في الصّينية من كعك التين ومكسرات الجوز وكوب الياغورت. أشاهد اللحظة مراسم دفن الشيخ ناصر حريزي قائد هيئة العزابة في بني ميزاب. المشاهد محزنة جدًا، ليس لمكانة الفقيد وقيمته العلمية والاجتماعية في منطقة غرداية، بل كيف يدفن (رحمه الله) في موكب جنائزي كبير جدًا، علاوة على إنّ أغلب الحاضرين غير ملقحين، ولم يحترموا إجراءات التّباعد الاجتماعي ولا البروتوكول الصحي!؟ وكيف لرجل توفي متأثرًا بفيروس كوفيد_ ١٩ في بريان، أن لا يخضع جثمانه للعزل وأن لا يتم دفنه من قبل أعوان الحماية المدنية من دون حضور أيّ كان؟ أشاهد الآن الصّفوف مرصوصة، الكتف بالكتف، والسّاق بالسّاق جراء الزّحام واكتظاظ المشيعين، وأغلب من كان يرتدي الكمامة، وضعها عن طريق الخطأ أسفل الأنف مباشرة!

هكذا يجد الوباء فضاء خصبًا للترعرع والنّموّ والتّكاثر، في جوّ من انعدام الوعي واللامبالاة الكاملة، ضربًا بعرض الحائط كلّ إجراءات السّلامة والوقاية من انتشار العدوى. هذا دون الحديث عن سياسة الكيل بمكيالين في فرض قواعد الانضباط على البسطاء من النّاس فقط، وتجاهل الإخلال بها والخروج عنها من طرف من لهم سلطة سياسية أو دينية أو مالية أو أمنية، أو غيرها. هؤلاء يفرضونها فقط على

الآخرين كونهم غير معنيين بها تمامًا!
السّاعة الثّانية وثماني عشرة دقيقة زوالًا، أقرأ خبرًا على موقع القسم العربي لراديو الصّين الدولية (CRI)، يدعو إلى بعض الاطمئنان، ويفتح بصيص أمل وسط عتمة الوباء؛ إذ نجحت الصّين مرحليًا في احتواء المتحوّر «دلتا» من فيروس كورونا الجديد. حيث يؤكد الخبر أنّ: «الصّين لم تسجل أيّة حالة إصابة محلية جديدة من العدوى يوم أمس الأحد». تحسنت معنوياتي بعض الشيء، خصوصًا من إمكانية مكافحة الوباء والنّجاح في احتوائه، بينما لا تزال بعض دول العالم تقف مكتوفة الأيدي إلى حد ما أمام هذه السّلالة الجديدة التي صنفتها منظمة الصّحة العالمية على أنّها «متحوِّر مثير للقلق»، نظراً لما تتميز به من عدوى أشد، وسرعة أكبر في الانتقال والتّكاثر، وخطورة أكبر في إصابة البشر.

السّاعة الرّابعة زوالًا، اتصلت بصديقي رابحي واتفقنا على اللقاء بعد الخامسة. خرجت. تسكعت. عدت أدراجي إلى الشّقة في الثّامنة ليلًا. تناولت العشاء. لا شيء آخر يستحق عناء الحديث عنه.

السّاعة العاشرة واثنتان وثلاثون دقيقة ليلًا، يبقى الإنسان الجزائري عصيًا على الفهم، نحن بحاجة إلى دراسات من قبل علماء الاجتماع والنفس كما أوردنا مرارًا وتكرارًا، من أجل إدراك كنه هذا الكائن الغرائبي! هناك من منطقة القبائل من يجزم أنّ الحرائق التي اندلعت هذه الأيام هنا وهناك (بعد إخماد جل الحرائق الكبرى)، والتي يتمّ إشعالها على وجه الخصوص بالقرب من حقول الزيتون وخلايا النّحل... أن

تكون مفتعلة بغباء للاستفادة من التّعويضات على الخسائر المزعومة. هناك من يجعل من الإنسان بمنطقة القبائل (تيزي وزو وبجاية...) كائنًا فوق كل الأجناس الأخرى المكوّنة للمجتمع الجزائري، يمنحه القداسة ويجعل منه شعب الله المختار مقارنة بالسّكان الجزائريين من أصول عربية أو من التّوارق والشّاوية وبني ميزاب والأتراك، وغيرهم. في حين أن الإنسان الجزائري على اختلاف إثنياته وأصوله وسلالاته اكتسب عادات وسمات وسلوكات مشتركة جراء التّفاعل والاختلاط والتعايش مع مرور مئات السنين.

السّاعة الواحدة والنّصف لم أستطع النّوم بسبب الأرق، مددت يدي يمينًا، أشعلت مصباح طاولة السّرير، سحبت منها كتابًا كيفما اتفق، ثم شرعت في القراءة. حالما شعرت بالنّعاس، تركت الكتاب واستسلمت للنّوم. مرة أخرى الكوابيس أفسدت نومي، ها أنذا أصحو مجددًا. حاولت أن أنام لم أستطع، ظللت لوقت طويل إلى أن غلبني النّعاس.

46

٢٠٢١/٨/٢٤

أفقت في التّاسعة والرّبع صباحًا، لم أقوَ على النّهوض، جراء الأرق والكوابيس التي قضت مضجعي طيلة ليلة البارحة. غفوت مرة أخرى، إلى أن صحوت في الحادية عشرة ونصف. متعبًا، منهكًا، ومفككًا، كأنّني بت الليل بطوله أحمل الأثقال على كتفي.

لاحظت من فترة غياب الصّديق الأكاديمي والكاتب في الفلسفة نور الدين جباب، لكن تسارع الأحداث وتتابع الأزمات جعلني أتقاعس عن السّؤال عنه، حتى أن هناك من الأصدقاء من افتقده وسأل عنه في وسائل التّواصل الاجتماعي قبل أيام فقط. الآن أقرأ ما كتبه الصديق جباب ونشره قبل لحظات: «حجم المحبة التي أبداها الأصدقاء والأحبة وأسئلتهم التي لم تتوقف عن سبب غيابي وعن وضعي وعن صحتي، تجعل كلّ رصيدي اللغوي وحتى معجمي الفلسفي يعجزان على شكركم... في البداية كان التّهاون واعتقدت أنّها نزلة برد بسيطة وسوف تزول. تناولت بعض

الأدوية المعروفة، رغم ظهور بعض الأعراض غير المألوفة لم أبال واستبعدت نهائيًا أن يكون ذلك الوباء اللعين، لأني كنت حريصًا أشد الحرص منذ بداية انتشاره، ولا أعلم لماذا قررت أنّه لن يتسرب إلى جسدي ويمسني ضرره ويلزمني الفراش، التّهاون والتّأخر في إجراء الفحوص جعل الوباء يتمدد على راحته في جسدي، وهو ما جعل الطّبيبة تتأسف كثيرًا على تأخري في العلاج، ما جعل الوباء يتسرب إلى الرئتين ويتمكن مني. لقد عشت أيامًا حالكات ولا أبالغ لما أقول أنّي رأيت الموت وعشت مع الموت، وهو ما جعلني في لحظة معينة بعدما أدركت أنّي ميت لا محالة، وكنت غير قادر حتى على الكلام، أوصي الزوجة في بعض القضايا...». سعدت بسلامة وعودة الصديق جباب غانمًا من تجربة صعبة وقاسية اقترب فيها من الموت، وتمنيت له دوام الصّحة والعافية.

السّاعة الثّانية والربع زوالًا، الوزارة الأولى تقرر فتح الشّواطئ وفضاءات التّرفيه والتّسلية ابتداء من الغد الأربعاء! اعتقد أنّ الحكومة ليس في صالحها الاحتواء النّهائي للوباء، فكلما انخفضت نسب الإصابات قليلا عادت لرفع المنع والحجر. ثم الرجوع مرة أخرى إلى المربع الأوّل، موجة جديدة من انتشار الفيروس، مشكل توفر الأكسجين، ومدى استيعاب المستشفيات للمصابين الجدد، وارتفاع عدد الوفيات، وغيرها. استمرار الوباء، يعني استمرار القبضة الحديدية للسلطة القائمة، بقرارات ارتجالية واستثنائية. خصوصًا مع إيقاف الحراك الشّعبي لدواع صحية، وسجن كل صاحب رأي مخالف. وقريباً التّحضير لفتح مكاتب الاقتراع، الانتخابات المحلية

على الأبواب.

السّاعة الرّابعة وثلاث دقائق زوالًا، تعديل توقيت الحجر الجزئي المنزلي وتقليصه، إذ أصبح من الساعة العاشرة ليلًا إلى غاية السّاعة السّادسة من صباح اليوم الموالي، بدلًا من الثّامنة ليلًا، على الأقل بمثابة فرصة للتمشي واستنشاق الهواء النّقي ليلًا هربًا من قيظ وزحمة النّهار.

السّاعة الخامسة والربع، الجزائر تقرر قطع العلاقات الدبلوماسية مع المغرب ابتداء من اليوم! لا أرغب في التّعليق أو الحديث عن الأمر، فسبق ونشرت رواية بعنوان (زوج بغال أو ثلاث حيوات لرجل واحد)، وتحدثت عبر أكثر من منبر إعلامي عن الموضوع، يبدو أنّه لا جدوى من الكلام مرة أخرى. هناك من وصفها بأنّها علاقة حب فاشلة، لا ود متبادل فيها إطلاقًا. أما الصّديق سلام الكواكبي حفيد الشّيخ عبد الرّحمان الكواكبي صاحب كتاب (طبائع الاستبداد)، علق بسخرية على الخبر قائلًا: «مع خبر قطع العلاقات بين الجزائر والمغرب لا يرد إلى ذهني إلا اسم نقطة حدودية بينهما (والحدود مغلقة منذ ٣٠ عاماً): زوج أبغال».

السّاعة التّاسعة وربع ليلًا، قرأت ردًا صادمًا من أكاديمي وكاتب في حق صديقي النّاقد والكاتب محمد رابحي: «أما أنت فممتلئ بغرور كبير، وبخواء يليق بمقامك السخيف. هنيئا للجزائر بك وبأمثالك. كنت أريد أن أبصق على وجهك، لكنك البصقة أغلى منك». وكان الصديق رابحي قد حدثني لما التقينا اليوم مساء بخصوص الهوشة التي حدثت مؤخرًا بين كاتبين كبيرين في السن، قائلًا: هما «وجهان لمشهد واحد..

عندما تواجه مرآة بمرآة أخرى، تأكد أنّهما لن تعكسا أيّ شيء إلا الفراغ». هذا الكلام نشره لاحقًا على الفايسبوك، الأمر الذي جعل ذلك الأكاديمي (أحد طرفي الهوشة)، يستشيط غضبًا، ويسقط في مستنقع من السّب والشّتم غير المبرر! كان الصّديق رابحي برصانته ورزانته مدركًا أنّه سيخسر طاقته وصحته جزافًا، إذا أعطى لذلك الموقف أو الشّخص أكثر مما ينبغي، لا شيء يستحق.

47

٢٠٢١/٨/٢٥

السّاعة العاشرة والنّصف صباحًا، وصول أعيان منطقة الأربعاء ناث إيراثن إلى مدينة مليانة لتقديم المواساة والدّعم إلى عائلة المرحوم الفنان والرسام جمال بن إسماعيل، ومنحهم مبلغ تضامني (دية)، قدره ثلاثة ملايير سنتيم. في حين منحت الدّولة بقرار رئاسي عائلة المرحوم مبلغ مائة مليون سنتيم فقط جراء خسارة ابنها بتلك الطّريقة الوحشية! مع العلم أن الدّولة تتحمل المسؤولية الكبرى، بسبب تقاعس أجهزتها ومؤسساتها الأمنية في حمايته، بعد أن اختطفه الجناة عنوة من عربة الشّرطة وأمام أعينهم، بدون أن يحركوا ساكنًا، جراء نقص الدّعم الأمني أمام الحشود الغاضبة.

إحدى عشرة دقيقة بعد منتصف النّهار، أحيانا السّخرية والتّهكم في مقابلة أو مواجهة الأخبار السّيئة والأحداث المؤلمة بمثابة ملاذ آمن يقي من الصّدمات الكبرى. الشّعوب في الغالب تكتشف أدوات وطرق المقاومة والبقاء وسط الخراب، حتى في أحلك الظّروف التي قد تمر

بها؛ كالحروب أو الكوارث الطّبيعية أو البشرية، تبتكر تلك المجتمعات وسائلها الخاصة بها، انتصارًا منها لفعل الحياة على الموت الممنهج؛ الجزائريون استقبلوا خبر إيقاف العلاقات الدبلوماسية مع المغرب بسيل من النّكات والتّهكم! هناك من يطمئن المدمنين ويهدئ من روعهم، بأنّ ما حدث هو مجرد إيقاف العلاقات الدبلوماسية فقط، في حين إنّ المخدرات غير معينة تماما بهذا القرار؛ ففي العادة لا تدخل المخدرات الجزائر بالطرق الدبلوماسية. وآخر يتحدث عن البدء بالتعود على تدخين عشبة العرعار والشيح بدل عشبة الكيف والمخدرات، حيث سيضيق الخناق على دخولها إلى التّراب الوطني. السّاعة الثّانية والنّصف زوالًا، أقرأ على موقع جريدة (أخبار الشرق) المحلية، خبر حجز أزيد من أربعة قناطير من المخدرات، أدخلت من المغرب خلال الفترة الممتدة من ١٨ إلى ٢٤ أوت/أغسطس الجاري، حسب الحصيلة العملياتية لوزارة الدفاع الوطني! السّاعة الرّابعة وعشر دقائق، بينما أتصفح موقع جريدة الشروق، أقرأ تصريحًا صادرًا من مجلس الأمة (التشريعي)، يؤكد فيه رئيسه، بأن «قطع العلاقات مع المغرب هو الردّ الأكثر عقلانية واتزاناً من الجزائر». يد واحدة تقبض على كل السّلطات؛ السياسية، الأمنية، التشريعية، وسلطة الإعلام أيضًا، وبعدها يتم الحديث عن استقلالية السّلطات!

السّاعة الخامسة زوالًا، سمعت الآن، إنّ قاضي التّحقيق لدى محكمة عنّابة، أمر قبل يومين، بإيداع صاحب الفيديو المحرض على العنف والكراهية ضد منطقة القبائل الحبس المؤقت.

الخبر أثلج صدري، وكنت انتظر سماعه من يوم شاهدت ذلك الفيديو المريع، حتى يكون عبرة لكل من تسوّل له نفسه إشعال نيران الأحقاد والانقسام بين أبناء البلد الواحد.

السّاعة التّاسعة ليلًا، كان الجوّ قبل لحظات رطبًا ومختنقًا، الآن تداعب وجهي نسمات هواء عابرة ومنعشة، ثم فجأة أبرقت السماء، مع هزيم الرعد ورذاذ المطر. دخلت السوبر ماركت لاقتناء بعض المشتريات، وحالما خرجت وجدتها تمطر بغزارة! بقيت تحت غطاء واجهة السوبر ماركت ريثما يتوقف المطر. كنت أحدق في المطر المنهمر وهو يغسل المدينة من كلّ ما علق بها، علّه يرفع عنها أثقالها وأمراضها. بعد ربع ساعة قفلت راجعًا إلى الشّقة. تناولت العشاء. ثم استلقيت على السّرير. تارة أغوص في مشاهدة التّلفاز، وطورًا أبحر مع الانترنت. السّاعة الواحدة والنّصف بعد منتصف الليل، انغمست في قراءة مقاطع من رواية (بطاقة هوية) لخوان غويتيسولو، يفضح فيها جرائم الفرانكويين وأخطاء الجمهوريين، بعد إعادة مراجعة اليوميات التي كتبتها بالأمس.

48

٢٠٢١/٨/٢٦

استيقظت في السّاعة الثّامنة صباحًا، غسلت وجهي، ثم حلقت شعر وجهي. تناولت فطوري. وفي السّاعة التّاسعة وسبع وعشرين دقيقة غادرت الشّقة. اجتزت الطّريق الفرعية مرورًا بثانوية أبي مروان، وحي سانطنة، ثم شارع أربع طرق، وصولا إلى منعطف مقر مركز الشّرطة الثّالث، وشارع ثانوية القديس أوغسطين. كنت في الشّوارع والأرصفة بالكاد أصادف بعض المارة، مع حركة طفيفة للسيّارات والعربات. توقفت غير بعيد عني حافلة نقل الركاب في الموقف المخصص لها، كانت شبه فارغة. كأنّ المدينة لم تستيقظ بعد من شقائها ووهنها بعد يوم آخر متعب ومنهك. مررت على المركز الصّحي بمحاذاة مقر الولاية، سألت الحاجب عن إجراءات التّلقيح، فقد اقترب موعد الجرعة الثّانية من اللقاح، الذي برمج لي بعد شهر وعشرة أيام، تنتهي الأحد القادم.

حالما وصلت إلى البريد المركزي (لاغراند بوست)، كل الشّبابيك كانت مشغولة، وأمامها طوابير لا تكاد تنتهي، فضلًا عن عشرات مقاعد الانتظار غير الشّاغرة كلّها. توجهت

إلى القاعة الثّانية حيث شباك الويسترن يونيون، سحبت التّيكيت لانتظار دوري، علاوة على وثيقة سحب المبلغ كي أعبئها. كانت قد وصلتني مكافأة مالية من إعادة طبع رواية ثلاث حيوات لرجل واحد (زوج بغال). تمنيت أن يحوّل المبلغ بالدولار على حسابي البنكي، في حين تعذر على النّاشر خارج الجزائر القيام بالعملية، لذا اقترح أن يرسل عبر ويسترن يونيون، وبالتّالي أستلم المبلغ بالدينار الجزائري بدل الدولار الأمريكي؛ وهي للأسف الشّديد طريقة تجعلني أخسر نصف قيمة المبلغ. جراء الهوة الكبيرة بين سعر صرف الدولار في السّوق الرّسمي وفي الأسواق الموازية، ورسوم تكاليف التّحويل المرتفعة مقارنة برسوم البنوك. قررت عدم مواصلة الانتظار أمام الأعداد الغفيرة ممن هم قبلي في الدور. حالما خرجت عبرت الطّريق المختصرة بين السّجن وقاعة المحكمة، وصولًا إلى ساحة الثّورة، أين وجدتها تعج بالمارة. صادفت صديقي حجار صاحب مكتبة الثورة، التي وجدتها مزدحمة على آخرها، بسبب التّحضير للدخول المدرسي بعد أكثر من أسبوعين بقليل. والمسكين أمام مدخلها، يضبط تنظيم عملية دخول الزّبائن على دفعات متتالية.

السّاعة الحادية عشرة وربع، زرت أبي، والتقيت أخي عبد الحق وأختي هدى هناك. ولاحقًا التحق أخي العربي. اجتماع أفراد العائلة يمنح الواحد منا قوة خفية، قد لا يدرك قيمتها لحظتها، لكن فاعليتها وفعاليتها تدوم على المدى البعيد، واستدامتها تلك بمثابة صمام أمان للفرد أمام الهشاشة، الخوف، المرض، الوباء، الانتظارات، وغيرها من الإكراهات

الأخرى. قبل المغادرة تناولت وجبة الغداء؛ معكرونة بلحم الخروف، فاكهة العنب، وعصير البرتقال. ثم شربت فنجان قهوة ضبطت المزاج في قمة رأسي.

عند السّاعة الثّالثة إلا ربع عدت إلى البريد المركزي بوسط المدينة، هذه المرة خفت حدة الطّوابير بشكل كبير مقارنة بالصّبيحة. كما انتبهت أن هناك موظفًا آخر عوض الموظفة التي وجدتها في الصّباح. طلب مني موظف الشّباك الجلوس في الكراسي المقابلة، هناك شخصان قبلي في الدور، والتيكيت الذي أخذته صباحًا انتهت صلاحيته. انتظرت خمس وعشرين دقيقة تقريبًا، إذّاك أشار لي الموظف بأن أقترب من الشّباك، منحته الوّثيقة معبأة مصحوبة ببطاقة هويتي، طلب مني الرّجوع إلى تلك الكراسي والانتظار ريثما ينادي باسمي. استجبت لطلبه، لكن الرّجل كل لحظة ينادي باسمي، حالما أقترب من الشّباك يسألني سؤالًا أو يستفسرني، ثم يطلب مني مجددًا الرّجوع إلى مكاني، وهكذا قضيت أكثر من ربع ساعة أخرى أحرث المكان ذهابًا وإيابًا! تارة يسألني عن عنوان مسكني، وطورًا عن اسم الشّخص الذي أرسل المال، ومرة أخرى عن البلد الذي وصلني منه المبلغ، وهكذا دواليك. علما أنّني سجلت كل تلك المعلومات على الوثيقة التي سحبتها من الشّباك صبيحة اليوم!

أوقفت سيارة أجرة أقلتني إلى حيث أقطن. وقتما فتحت باب الشّقة، غيرت ملابسي، اغتسلت، فتحت باب الثّلاجة، أخرجت قارورة مياه معدنية، وضعتها فوق طاولة غرفة النّوم، الكأس تلو الأخرى؛ لم أتوقف عن الشّرب، إلى

أن ارتويت، بعد أن أتيت على أكثر من ثلثي القارورة. لاحقًا، ارتميت على السّرير مستمتعًا بالبرودة المنبعثة من المكيّف، غير آبه ببرنامج وثائقي حول (ملوك إفريقيا)، حيث متلازمة التّخلف، الجهل، الأمراض، الاستبداد، النّزاعات، الحروب الأهلية، الانقلابات، الخيانات، والعمالة.

السّاعة السّادسة واثنتان وعشرون دقيقة، خرجت مجددًا من الشّقة. كأنّ المدينة استأنفت حياتها الطّبيعية، زحمة السّيّارات في الطّرقات، وضجيج الدّرجات النّارية، واكتظاظ المارة على أرصفة الشّوارع، والنّاس بكثافة أمام عربات بيع الشّواء، وعربات بيع الفواكه. السّاعة السّابعة زوالًا الآن، وأغلب المتاجر مازالت مفتوحة. اشتريت مصباحًا، وموّزعا متعدد للقوابض الكهربائية، في حين نسيت ماركة حنفية المطبخ من أجل اقتناء ميكانيزم تشغيل الماء البارد (المعطل). حاولت سحب مبلغ آخر من المال من حسابي البنكي، ما جعلتني أتنقل من موزع إلى آخر، فجل الموزعات الآلية للبنوك خالية من الأوراق النقدية، عدا موزع واحد عثرت فيه على غايتي.

عدت أدراجي إلى شارع الأربع طرق، لاقتناء الخبز من مخبزة شعابنة. ثم واصلت إلى غاية محور دوران حي إليزا، ومنه إلى أتوليه صديقي الفنان التّشكيلي تمتام لقضاء بعض الوقت برفقته. الشّوارع والأرصفة التي مررت بها ما زالت تعج بالمارة، وجموع الجالسين بجنب المحلات وبمحاذاة البنايات والمنازل كلطخة أو كالبق، يمتصون الدماء الحيّة من مدننا، يتبادلون أطراف الحديث عن المباريات الكروية، أو يستمتعون

بالنّميمة وتتبع القادمين والرّائحين بعيونهم النّهمة. هكذا تشيخ مدننا باكرًا وتفقد حيويتها. كان صديقي منهمكًّا في رسم بورتريه جديد، ومع ذلك أخذنا النقاش إلى موضوعات شتى في الرّاهن الثّقافي الموبوء أساسًا، بالمنطقة العربية بشكل عام. السّاعة التّاسعة وأربعون دقيقة، ودعت صديقي وتفارقنا عند منعطف الشّارع المحاذي للأتوليه، ثم قفلت راجعًا إلى الشّقة من دون أن ألوي خلفي.

49

٢٠٢١/٨/٢٧

البارحة لم يغمض لي جفن إلى غاية الثّالثة والنّصف صباحًا. أفقت على العاشرة والنّصف منهكًا وخائر القوى. بعد نصف ساعة تناولت إفطاري، ورجعت من دون أدنى تردد إلى الفراش. أشعر بآلام حادة برأسي. اليوم الجمعة، وصوت مقرئ القرآن العذب يصلني إلى الشّقة.

هذه الأيام انخفضت حدة الوباء؛ يتراوح عدد المصابين بالعدوى (المصرح بهم رسميًا فقط) بين خمسمائة أو أقل أو أكثر بقليل. في الوقت عينه مازال هناك من يقضون جل أوقاتهم في البحث لمرضاهم «عن مكثف، أو عن قنينة أوكسجين، أو عن إبر اللوفينوكس، أو عن تحاليل معينة ضرورية (تحاليل الدم، أو سكانير الصدر ...)، أو عن سرير بالمستشفى»، علهم ينجون من الموت! علاوة على إنّ نسبة كبيرة من هؤلاء يقفون عاجزين أمام الأسعار الباهظة والملتهبة للأدوية والتحاليل والأجهزة العلاجية، جراء استغلال المضاربين حاجة النّاس للاستشفاء وظرف الوباء.

فضلًا عن أنّ أغلبهم غير مؤمّنين اجتماعيًا، ولا يملكون مالًا كافيًا، أو لا يمتلكون الحيلة للحيلولة دون تفاقم الوضع إلى الأسوأ. لم يبق أمامهم سوى الاستسلام للوباء اللعين في صمت. هؤلاء ليسوا معنيين إطلاقًا بالصّراعات والفتن الجهوية أو القبلية أو اللغوية أو الإثنية التي أشعلها السّذج من خلف شاشات هواتفهم الذّكية وهم في غرف مكيّفة! هؤلاء أيضًا لا يهمهم ولا يأبهون إطلاقا بالنّزاعات والمعارك التي نشبت مؤخرًا بين بعض المثقفين العجائز، ونشر غسيلهم على شبكات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام! السّاعة الواحدة وتسع وثلاثون دقيقة ظهرًا، لم يتوقف الألم الحاد، رأسي يكاد ينفجر! ران صمت رهيب وطويل. الحركة شبه منعدمة في الخارج. عدا الشّمس الملتهبة التي تصلي أسطح البنايات وواجهاتها، وتكاد تذيب إسفلت الطرق. الشّوارع كأنّها ميتة، لولا أصوات منبهات السّيّارات تصل مسامعي بين الحين والآخر.

السّاعة السّابعة إلا خمس دقائق زوالًا، خرجت لأتنفس بعض الهواء النّقي. الجو ثقيل، والشّوارع بلا لون أو طعم، شاحبة ورخوة، لا تغري مطلقًا بالتّمشي أو التّسكع. كأنّها تسخر منا، أو تخفي وتحجب فزعها وهشاشتها. النّاس الذين صادفتهم بلا ملامح، أو بلا وجوه، أو بأقنعة تغطي الفراغ. لا شيء ممتع عدا سطوة الوحشة والخواء التهمت بهجة الأمكنة والسّاحات.

السّاعة الثّالثة وأربعون دقيقة صباحًا، حاولت النّوم لكن دون جدوى، عندما أيقنت بعجزي أشعلت مصباح طاولة السّرير،

وأخذت أقرأ مقاطع من رواية (دون خوليان). صوت المؤذن يصدح لإيقاظ المصلين لأداء صلاة الفجر. حالما فرغ من رفع الآذان، ردد بصوت متحشرج تغشاه نبرة ممعنة في الحزن: «الصّلاة في بيوتكم» مرتين. لم يتوقف صداع رأسي رغم أنّني ابتلعت حبة مسكن أخرى.

50

٢٠٢١/٨/٢٨

أفقت في العاشرة صباحًا، غسلت وجهي، ثم تناولت إفطاري وأنا أتملى من خلف زجاج النّافذة المنظر البانورامي للمدينة من عل. الشّمس ساطعة، والحياة عادت إلى الشّوارع، حركة المارة والسّيّارات لا تهدأ. أخذت الريمود كونترول، شغلت التّلفاز. عثرت بالصّدفة على فيلم (The Social Network)؛ جموح شبكات التّواصل الاجتماعي التي أضحت مكانًا بديلًا للعيش، ولإثارة المخاوف والنّزاعات والحروب بين روادها، باتت أيضًا بؤرة لكل أمراض العصر الحديث! لا أحب متابعة أي فيلم بعد أن يبدأ، أو من وسطه، أو عند نهايته، ومع ذلك تسمرت أمام الشّاشة متتبعا شخصية السّيد مارك زوكيربيرغ في الفيلم، محاولًا اكتشاف بعض ما يحيط بها من غموض وجنون أيضًا، وكذلك أحداث عن صعود شركة فايسبوك، وغيرها من التّفاصيل الأخرى. السّاعة الواحدة بعد منتصف النّهار، ارتميت على السّرير

وتابعت المشاهدة، إلى أن نمت. كانت قيلولة طويلة، صحوت منها عند الرّابعة والرّبع زوالًا.
السّاعة الخامسة وتسع دقائق زوالًا، خرج وقت الغداء، لذلك حضرت كوب حليب ممزوج مع القهوة، فضلًا عن قطعة من خبز الدار. جلست إلى الطّاولة البيضاء، فتحت زجاج النّافذة قليلا، ثم أغلقتها مرة أخرى، الهواء في الخارج دافئ ورطب. تأملت منظر السّماء الصّافية والمتناغمة مع السّهل، والبحر، والجبال المحيطة، تتوشح بأناقة ورقي سحبًا نقية البياض، والبنايات مستلقية باطمئنان ودعة، ونور الشّمس عند الأصيل أضفى متعة بصرية لا تضاهى على لوحة المدينة المتأنقة والفخمة.
السّاعة السّادسة وست دقائق زوالًا، أحيانًا تشعر بضاءلتك أمام عظمة غيرك، كنت أفكر فيما ستقدم عليه الصّديقة فضيلة الشامي. عرفتها قبل عشر سنوات ونيف، سورية مقيمة بإسبانيا؛ هي في طريقها اليوم إلى القيام بعمل شجاع، تقوم به كل خمس سنوات على التّوالي. لم يسبق وأن أعلنت عنه أمام الملأ، هذه أوّل مرة تعلن عن هذا العمل قبل الإقدام عليه. نتائجه مدهشة وإنسانية بحتة. كلّ خمس سنوات تربي شعرها، وتهتم به وتستمتع بجماله أيضًا، لكي تقصه وتتبرع به مثل الكثيرات في هذا العالم. في إحدى المرات، تبرعت به لصبية من أقاربها ولدت بدون شعر. ومرات أخرى تبرعت به لبنك الشعر في المشفى، لمرضى السّرطان. ومرات لأي شخص ممكن أن يستفيد منه أو من بيعه. هذه المرة؛ ولأول مرة بعمرها انتابها إحساس غريب،

ربما تكون المرة الأخيرة! أصبح عمرها ستين عاماً. هذه المرة سيسافر شعرها إلى سوريا. كان بإمكانها أن تبقيه وأن لا تقصه، رضوخا لنصح العديد من الأصدقاء، ثم تتبرع بمبلغ من المال بدل قصه وحرمان نفسها منه. لكنها آثرت أن تتبرع به لعائلات تعيش بدون أي دعم. لبيعه والاستفادة بثمنه، خصوصا أن الباروكات أضحت الموضة الرائجة. ممكن أن تكون من بين تلك العائلات المحتاجة، هناك أم وحيدة تربي أطفالها لوحدها بدون أي مساعدة. جميل أن تمرغ في التّراب أي شيء قد يمنحك الغرور أو الاعتداد بالنّفس، وان تكابر في حجب الشعور بالمرارة داخلك، إنك بذلك تربي نفسك على التّواضع، البذل، والعطاء، في زمن أعمى وأصم، فقد إنسانيته.

السّاعة السّابعة إلا خمس دقائق، خرجت من الشّقة. كان الهواء في الخارج منعشًا، وآذان المغرب يصل إلى مسامعي الآن. حالما وصلت إلى حي لاكولون شعرت بالحرارة تنبعث من جوف الأرض والجو مختنق بشكل لا يكاد يحتمل؛ اكتظاظ السّيّارات، الزّحمة في كل مكان، المارة على الأرصفة، وأغلب المتاجر مملوءة على آخرها بالمشترين. منظر الباعة المتجولين والطّوابير الطّويلة أمام واجهات المطاعم في انتظار الحصول على الطّلبيات، وعقارب السّاعة على أبواب التّاسعة ليلًا، ومع ذلك ما زالت أكثر من ساعة تقريبًا ليبدأ موعد حظر التّجوال (جراء الحجر الليلي).

51

٢٠٢١/٨/٢٩

قضيت البارحة ليلة أرق شديدة، وطويلة، ومرهقة، صحوت منها عند السّابعة صباحًا، قمت بطقوسي المعتادة تقريبًا، ولاحقًا غادرت الشّقة؛ على الثّامنة صباحًا بالضّبط. فاليوم هو موعد تلقي الجرعة الثّانية من اللقاح في المركز الصّحي بمحاذاة مقر الولاية.

كانت الشّمس متوارية خلف الغيوم، والطّقس مختنقًا ورطبًا. الأحياء والشّوارع التي اجترتها تقريبًا فارغة، عدا بعض المارة والسّيّارات هنا وهناك. أغلب المتاجر والمحلات مغلقة، والبعض الآخر منها صادفت أصحابها على أهبة فتحها. حالما وصلت، منحني العون التيكت رقم ١١٠. دسست التيكت في جيب سروالي، وانسحبت خارجًا. تمشيت بدون هدف في شوارع وسط المدينة، وعندما كنت أتسكع في أحياء وأزقة لابلاص دارم (المدينة العتيقة)، بدأت أشعر بزخات المطر تتساقط، بعد أن خيمت على سماء المدينة سحابة صيف عابرة.

عدت أدراجي إلى المركز الصّحي، انتظرت قليلًا، ثم سمعت العون المكلف بالتّنظيم ينادي على رقمي. تقربت من الحاجز الحديدي عند مدخل قاعة التّلقيح، طلب مني بطاقة اللقاح، أخذها وأنصرف. بينما بقيت انتظر دوري مع الحشود الموزعة على السّاحة هناك. وبين الحين والآخر تتعالى أصوات الجموع المتلاصقة أمام مكتب العون، أو تنشب مناوشة مع أولئك الذين لم يحترموا إجراءات التّباعد.

في السّاعة التّاسعة وثلاث وثلاثين دقيقة بالضّبط، تلقيت الجرعة الثّانية من اللقاح. ثم مررت على سوق الحطاب، اقتنيت فاكهة العنب والتّفاح، والزيتون، وشريحة سمك أبيض. لاحقًا اشتريت بعض الخضروات من حي لاكولون، ونصف عبوة بيض، وأضفت كيلو من الأجاص وخبز القمح من حي الزعفرانية. عند السّاعة الحادية عشر والنّصف صباحًا، كنت أمام البناية التي أقيم بها.

حالما دخلت الشّقة، شعرت بجوع شديد، علاوة على أنّ حرارة جسمي كانت مرتفعة بعض الشّيء، ممكن جراء أخذ اللقاح. غسلت أطرافي، ثم شرعت في طهو شريحة السّمك بالتوابل والليمون مع الطّماطم المقطوعة، ولاحقًا أعددت سلطة فواكه ممزوجة، وحضرت فنجان قهوة مع كعك الكاكاو.

السّاعة الواحدة وخمس وثلاثون دقيقة، كنت مستلق على السّرير، شارد الذهن؛ أفكر في الوباء، آه كم هي استثنائية وغير مسبوقة هذه الأيام، وكم هي صعبة وقاسية تلك الظّروف التي فرضها علينا الوباء اللعين، كلما أحاول

أن أتجاوز الأمر، أن أتحايل على الذّاكرة العنيدة، الملحاحة، والمصرة على أن لا تتركني أنعم بالسكينة وهدوء البال. عبَثا كنت أبحث عن الاطمئنان والسلام، ومخيلتي تعج بمشاهد، وصور، وأخبار الفيروس، العدوى، الإصابة، المعاناة، والموت!

السّاعة الرّابعة وأربع عشرة دقيقة، لم أنم طيلة فترة القيلولة، ومع ذلك أنا أفضل حالًا من ذي قبل، أحس براحة كبيرة، حتى حرارة جسمي أشعر بها معتدلة جدا مقارنة بصبيحة اليوم. علاوة على تحسن مزاجي. هل يمكن أن يكون للجرعة الثّانية التي أخذتها من اللقاح دخل فيما حصل؟

السّاعة السّادسة وثمان وعشرون دقيقة، غادرت الشّقة. عندما كنت في انتظار المصعد كان الصّراخ ينبعث من شقة الجيران. تأخر وصول المصعد وكان صوت الرّجل وهو يصرخ بكل ما أسعفته أحباله الصوتية، يبدو أنّه غاضب من زوجته، لاحقًا انفجر طفل صغير بالبكاء. تنفست الصّعداء لانفتاح باب المصعد. إذّاك هرعت داخله. الطّقس مناسب للتمشي، عبرت إلى حي سانطنة، وانعطفت إلى شارع ابن باديس الطويل، ثم اجتزت حي لاكولون إلى شارع الأمير عبد القادر، ومنه إلى شارع الثّورة، أين قطعت إلى الرّصيف المقابل المسقف، ثم انعطفت إلى شارع سيانرا، ومنه صعودًا إلى رحبة سيدي شريط، وغيرها من أزقة لابلاص دارم. لاحقًا وصلت إلى حيّ الماجستيك، ثم اجتزت شارع بوسيجور، وحي الميناديا، وسانكلو، وصولًا إلى واد القبة، أين عبرت الكورنيش وسط حشود المارة على الرّصيف الطّويل، والشّاطئ على يميني ممتلئ بالسّاهرين جالسين

إلى الطّاولات، أو مفترشين الرّمل. بالكاد يجد الواحد موطئ قدم، حتى الطّريق مكتظة على آخرها بالسّيّارات. عند السّاعة الثّامنة وسبع وأربعين دقيقة ليلًا عدت أدراجي إلى الشّقة.

52

٢٠٢١/٨/٣٠

صحوت على النّاسعة وأربعين دقيقة صباحًا، لم أكن على أحسن ما يرام، كنت متعبًا وأشعر ببعض الوهن، رغم أن نومي لم يكن متقطعًا، ولم أشعر مطلقًا بنوبات هلع وقلق أثناء النوم ليلة البارحة، على غرار ما خبرته الأيام الماضية. هل الأمر مأتاه الجرعة الثّانية من اللقاح التي تلقيتها بالأمس؟ فتحت النّافذة وسحبت السّتار أين عمت أشعة الشّمس السّاطعة أرجاء الغرفة، لاحقًا غسلت وجهي وأطرافي، ونظفت أسناني بالفرشاة، ثم أعددت فطوري. حالما فرغت من تناول الفطور، شعرت ببعض الرّاحة والتّحسن. شغلت التّلفاز، وفتحت حاسوبي المحمول، لديّ بعض الأعمال المؤجلة.

السّاعة الواحدة بعد منتصف النّهار، ارتميت على السّرير بعد أن تناولت غدائي، فنجان القهوة وصينية الفواكه وكعك التين ومكسرات الجوز على يميني، بينما كنت أشاهد

في فيلم (الفيل الأزرق ٢) المقتبس من رواية احمد مراد. الفيلم شدني من المشهد الأوّل، وكنت أتتبع بشغف بقيّة المشاهد التي جاءت في مزيج من الخيال، علم النّفس، الأساطير والفنتازيا، التشويق، الرّعب، الجريمة، والإدمان. هناك عالمان متوازيان؛ عالم خيالي وعالم واقعي في قالب من التخييل والواقعية السحرية والعجائبية، التي تغرف من دون أدنى تردد من التّاريخ والتّراث العربي والإسلامي، وهذا الذي يستدعي السّؤال عن أصالة النص المقتبس منه للسينما، ومع ذلك كانت التّجربة موفقة إلى حد بعيد في تجسير الهوة بين الرّواية والسّينما؛ طبعًا، على ندرتها بالمنطقة العربية.

السّاعة الثالّثة زوالًا، تجتاحني رغبة في النّوم لا تقاوم، أطفئ التّلفاز، أتمدد وأتمطط بتكاسل أكثر على السّرير، ثم ألف نصفي العلوي بالغطاء، أغمض جفني وأحاول الاستسلام للنوم. بعد عشرين دقيقة أو أكثر بقليل أتململ على الفراش من صوت ضجيج المارة وحركة وأبواق السيارات المنبعث من الجزء المفتوح من النافذة، أنسحب من تحت الغطاء الوثير، أسد تلك الفتحة وأستريح ثم أرتمي على السّرير مجددًا.

السّاعة الخامسة وأربعون دقيقة، أقرأ خبرًا عاجلًا على شريط الأخبار الأحمر أسفل الشّاشة: «وزارة الصّحة تسجل اليوم ٤١٢ إصابة جديدة بفيروس كورونا، و٣١ وفاة جديدة». رغم انخفاض نسبة العدوى حسب الأرقام الرّسمية المعلن عنها، إلا أنّني أتطلع في خبر آخر ظهر الآن، مفاده

تمديد الحجر المنزلي الجزئي لمدة ١٥ يوما بأربعين ولاية. طبعًا الحجر سيكون من الساعة ٢٢:٠٠ إلى ٦:٠٠ صباحًا. ومدينتي عنّابة من بين الولايات المعنية به. الأخبار الجديدة تترى بشكل متتال، علاوة على خبر آخر حول رفع إجراء البيع المحمول في المقاهي والمطاعم ومحلات الأكل السريع بنسبة ٥٠٪. في حين قررت الوزارة الأولى في خبر آخر تمديد إجراء منع كل التّجمعات خاصة حفلات الزّواج والختان، فضلًا عن تمديد غلق القاعات الرّياضية ومراكز الشّباب ودور الثّقافة، وأسواق بيع السّيّارات المستعملة.

السّاعة السّادسة وتسع وثلاثون دقيقة، خرجت من الشّقة. تمشيت إلى غاية الشّاطئ الصّخري القطارة، أين استمتعت بنسيم البحر العليل، وبصوت الأمواج التي تصفي الذّهن وتسبح به بعيدًا عن كلّ حرائق النّفس وهشاشات الحياة في فترة الحجر.

53

٢٠٢١/٨/٣١

أفقت على الثّامنة صباحًا، أشعر بأن جسدي وذهني بحاجة إلى النّوم، والنّوم، ثم النّوم. غطيت وجهي وحاولت مواصلة النّوم. السّاعة الآن العاشرة إلا خمس دقائق، صحوت متثائبًا، مازلت بين اليقظة والنّوم. نهضت من السّرير، قمت بطقوسي المعتادة. أشعر الآن بالثّمالة من النّوم، ومع ذلك ما زلت أفكر بالنّوم كأنّني كائن لم ينم دهرًا بأكمله!

انتبهت إلى رسالة على شاشة موبايلي وصلتني من أختي آسيا: «صباح النور وليد، من فضلك حالما تستيقظ اتصل بي». عندما اتصلت بها، أخبرتني أن أخي عبد الحق سيجلب لي وجبة الغداء التي أعدتها خصيصًا لي. شكرتها، ولمتها في الوقت نفسه؛ لأنّها أتعبت نفسها. أخبرتها أن لا تشغل بالها، وأن كلّ شيء على ما يرام. السّاعة الحادية عشرة وردني اتصال من أخي العربي، رجل الإطفاء؛ أخبرني أنّه بصدد المرور على شقتي اليوم، ويتساءل إن كنت مشغولًا أم لا؟ فمن فترة برمجنا تعليق اللوحات المتبقية بجدران الشّقة،

وإجـراء بعـض الإصلاحـات الطّفيفـة بالشّـقة. طلبـت منـه أن ينسـق مـع عبـد الحـق، ليأتيـا سـوية.

غـادر أخـواي شـقتي عـلى السّـاعة الثّالثـة زوالًا، بعـد أن قمنـا بإجـراء التّصليحـات المطلوبـة، وتبادلنـا أطـراف الحديـث في جلسـة عائليـة مسروقـة مـن زمـن الحجـر، هـي بمثابـة جـلاء للقلـق ورفـع للمعنـويات نكايـة في الخـوف، الارتبـاك، الذّعـر، التّوتـر، الفـزع، الرّعـب، الوحـدة، والمـوت الـذي يحوّطنـا مـن كل الجهـات. الخلاصـة، لا شيء يعـادل أو يضاهـي دفـء العائلـة. عندمـا تلتفـت في قوتـك أو في ضعفـك لـن تجـد سـوى إخوتـك وأخواتـك (طبعًـا، لا جـدال حـول والديـك)، عـدا ذلـك مجـرّد هـراء.

السّـاعة الرّابعـة إلا أربـع دقائـق زوالًـا، اقـرأ عـلى شريـط الأخبـار العاجلـة أن «رئيـس الـوزراء السـوداني يثمّـن المبـادرة الجزائريـة لحـل أزمـة سـد النهضـة!»، بينمـا عجـزت السـلطة التنفيذيـة في الجزائـر عـلى إدارة أزمـة الميـاه غـير المسـبوقة التـي انفجـرت منـذ أشـهر في عـدة مـدن جزائريـة، لا سيَّمـا في المناطـق الوسـطى، ومـن بينهـا العاصمـة التـي يقطنهـا أكثـر مـن ٦ ملاييـن شـخص، والمناطـق الغربيـة التـي تتواجـد بهـا عـدة ولايـات ذات كثافـة سـكانية كبـيرة، عـلى غـرار وهـران وتلمسـان. هـل يجـدر القـول أن أزمـة تسـيير المـاء في الجزائـر مجـرد أزمـة تقنيـة فقـط، أم أنّهـا في الجوهـر تعكـس أزمـة عميقـة، مرتبطـة بالسّياسـة العامـة لإدارة شـؤون البلـد ككل، أيـن يتـم إنتـاج وإعـادة إنتـاج الفشـل باقتـدار، وكفـاءة، وفعاليـة منقطعـة النّظـير؟

السّـاعة السّـادسـة وعـشرون دقيقـة، خرجـت مـن الشّـقة. تمشـيت قليـلًا في أحيـاء وأزقـة وسـط المدينـة. مـررت

على أتوليه صديقي الفنان التّشكيلي، بقيت هناك ساعة ونيف. تمشيت مرة أخرى من حي الشّيخ طاهر، إلى شارع عميروش، ومنه خرجت على شارع ابن باديس، ثم اجتزت نهج إرنستو شي غيفارا، وصولا إلى حي مينا ديا، ثم انعطفت يمينًا إلى شارع البوسيجور، مرورا بحي الماجستيك، وحينما وصلت إلى البريد المركزي، انعطفت مرة أخرى يمينًا إلى محور الدوران بمحاذاة الزّاوية العلاوية، ومنه إلى شارع ابن باديس مجددًا، صعودًا إلى حي الزعفرانية. السّاعة التّاسعة وعشرون دقيقة بالضّبط فتحت باب الشّقة ودخلت. اغتسلت، تناولت طبق الشخشوخة التّقليدية بلحم كتف الخروف التي أعدتها أختي، مع عصير الليمون، وحبتي تفاح وأجاص. كانت أختي قد أرسلت اليوم أربع وجبات طعام جاهزة.

54

٢٠٢١/٩/١

السّاعة الثّامنة وعشرون دقيقة صباحًا، استيقظت. غسلت وجهي وأطرافي، فرشت أسناني، وبعد ذلك تناولت فطوري. شغلت التّلفاز، لا شيء يستحق المشاهدة. حلقت شعر وجهي.

السّاعة العاشرة وثلاث دقائق صباحًا خرجت من الشّقة. أحب التّمشي صباحًا وليلًا لما تكون المدينة أقل اكتظاظًا أو شبه فارغة، أتنفس ملء رئتيّ، أستمتع بمعالم المدينة وعمرانها العريق، وبشوارعها وساحاتها وأزقتها الواسعة والضّيقة.

السّاعة الحادية عشر صباحًا، مررت على بيت أبي، التقيت هناك بأختي آسيا وأبنائها أنيس ونهال، وأختي هدى أيضًا، وكنا قد اتفقنا مسبقًا على اللقاء هناك. أما أخي عبد الحق لم يبق معنا طويلًا، فقد غادر إلى العمل. تناولت الغداء هناك، الأرز بلحم أضلع الخروف. بعد أن أكملت ارتشاف

قهوتي، غفوت فجأة ما قدره ساعة زمن أو أكثر بقليل في قيلولة طويلة وغير مخطط لها. السّاعة الخامسة وأربع وعشرون دقيقة غادرت بيت أبي. أقلتني سيّارة أجرة إلى وسط المدينة، أين التقيت بالكاتب محمد رابحي والإعلامية سلوى مسعي في ساحة الثورة. زحمة السيارة واكتظاظ المارة على الأرصفة وأبواق عربات الشّرطة، والمقاهي المفتوحة على أشجار الفيكوس في الكور مملوءة على آخرها. الطّقس ساخن ورطب، والنّاس تجدهم في كلّ مكان، محشورين، متقاربين، ملتصقين. تناقشنا في موضوعات ثقافية متعددة، كان أهمها عناوين مخطوطات جديدة بصدد النشر؛ «مزاج السينوفاك»، و»كراريس الرطوبة» لسلوى مسعي، و»أربع خطوات في الهواء» لمحمد رابحي، و»عدوّ غير مرئيّ» لبومدين بلكبير.

لاحقًا تمشيت إلى غاية شاطئ سانكلو، حالما وصلت هناك كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة إلا عشر دقائق ليلًا. رأيت مِيَاه الأمواج الْمُتَقَاذِفَة بِالتَّتَابُعِ عَلَى الشَّاطِئِ، إذّاك انتبهت إلى كبر حجمها، ونزوحها إلى جزء كبير من الشّاطئ، في حركة مد واضحة، مقارنة بآخر مرة كنت هنا. أحسست بالتّطهر النّفسي والنّقاء الذهني مع اِصْطِفاق أَمْواجِ البَحْر، وتَلاطُمها، وَاِصْطِخابها، إلى درجة التّحليق بعيدًا عن عالم النّاس. على السّاعة التّاسعة ليلًا عدت أدراجي إلى الشّقة بمزاج رائق.

السّاعة الصفر (منتصف الليل)، انقلب الطّقس بالخارج رأسًا على عقب؛ برق، ورعد، وريح، ومطر. باتت

الصّـورة عـلى شاشـة التّلفـاز غـير واضحـة الآن، يبـدو أن البـث شـبه مقطـوع جـراء ضعـف الإشـارة الملتقطـة.

55

٢٠٢١/٩/٢

صحوت على الثّامنة وأربع وعشرين دقيقة صباحًا، أول شيء قمت به، هو محاولة اكتشاف الوضع بعد التّقلب الجوي الذي حدث ليلة البارحة، حالما فتحت زجاج النّافذة، الطّقس بالخارج جد معتدل، والهواء منعش بشكل يدل على عودة الروح/الحياة. هذه الأيام أبذل قصارى جهدي كي أنهض باكرًا (مقارنة بالأيام الماضية)، حتى استعيد عافيتي النّفسية من هشاشات العيش في فترة الوباء والحجر، وطمعًا في أن أعيش كلّ تفاصيل اليوم بطوله وعرضه، لحظة بلحظة، فأن تنهض متأخرًا يعني أن يفوتك نصف النّهار، والنّصف الآخر لن تنتبه لسرعة انتهائه، وهكذا دواليك يحدث مع بقية الأيام؛ تقطع من حياتنا وتنقص من أعمارنا، دون أن ننتبه، أو أن نعرف كيف نقبض منها على تلك اللحظات الثّمينة والنّادرة التي تزيد في العمر وفي الحياة على حد سواء.
السّاعة العاشرة والنّصف صباحًا، اقرأ خبرا عاجلًا حول موجة حر كبيرة عبر ولايات شرقية صبيحة اليوم الخميس. وجاء

في تنبيه مصالح الأرصاد الجوية حول الطّقس، إن من بين الولايات المعنية مدينة عنّابة! علاوة على الطارف، قالمة، وسكيكدة. الطقس لا يؤتمن، بعد أن تنفست الصّعداء طمعًا في اعتدال الطّقس، ها هو هذا الخبر الصّاعق يعصف بكل تمنياتي وتهيؤاتي الواهمة. أكره الحر والرّطوبة إلى حد يصعب وصفه!

عند منتصف النّهار أخرجت من الثلّاجة علبة مرقة أمعاء وكرشة الخروف، ونصف خبز الكسرة. بعد تسخين الطّبق، تناولت قارورة عصير الليمون بالنعناع من الثلاجة، ملأت الكأس، ثم أرجعتها. حالما تناولت وجبة الغداء حضرت فنجان قهوة مضبوطة، ارتشفتها مع كعك التين ومكسرات الجوز.

السّاعة الثّانية والنّصف، كنت مستلقيًا على السّرير، أخذت أقرب كتاب من طاولة السّرير على يميني، قرأت بمشقة صفحة واحدة من دون تركيز، غلبني النعاس، فاستسلمت للقيلولة. أفقت على الخامسة، بقيت متكاسلًا في الفراش، على السّاعة السّادسة ودقيقة واحدة زوالًا، نهضت، حالما فتحت زجاج النّافذة صرعني القيظ والهواء المختنق والرّطب بشكل لا يطاق. لاحقًا، انتبهت إلى رسالة وصلتني قبل ساعات على بريدي الالكتروني من الكلية، تذكرني بإمضاء محضر الدخول وإرساله هذا السبت كآخر أجل. العودة إلى روتين العمل والتّدريس بالجامعة بعد عطلة مرت جلها في فترة الحجر الصّحي الجزئي، وحرائق الغابات، وغيرها من المحن والأزمات الأخرى.

السّاعة السّابعة إلا خمس دقائق، خرجت من الشّقة. تمشيت كالعادة، لا شيء يستحق الوصف جراء الملل والضّجر من الطّقس المضغوط، والرّطب جدًا.

56

٢٠٢١/٩/٣

صحوت على السّادسة صباحًا، استأنفت النّوم إلى غاية التّاسعة، فاليوم جمعة، وكلّ شيء في الخارج مغلق ومعطل كالعادة. قمت بطقوسي المعتادة، علاوة على إعادة قراءة ومراجعة نصوص سردية سبق وكتبتها، الأمر استغرق مني بعض الوقت، حالما شعرت بالتّعب وبالإنهاك، توقفت. السّاعة الثّانية عشرة وربع، أحسست بالجوع، قمت بتسخين طبق الطعام الجاهز. تناولت غدائي، ولاحقًا شربت قهوتي مع كعك الكاكاو ومكسرات الجوز والعنب، وكأس من عصير التروپيكال. على الواحدة إلا ربع استلقيت على السرير، وشرعت في مشاهدة فيلم (The Age Of Adaline). قصة الفيلم جديرة بالمتابعة وغير مجترة، على الرغم من أن قصة الخلود، الأبدية، والفناء جسدتها السّينما من قبل في عشرات الأفلام. أما بطلة الفيلم فهي فتاة جميلة أسمها (أدالين)، في يوم يتقلب فيه الطّقس، تنحرف سيارتها جراء عاصفة ثلجية إلى جرف، ثم تنقلب في بحيرة متجمدة تقريبا. تموت

الفتاة في البحيرة، وبفضل صاعقة من السّماء، ضربت بشكل مفاجئ هناك، تعود الفتاة أدالين إلى الحياة. ولكن الشّيء الغريب الذي حدث، هو أمر آخر تمامًا، إذ بعد عودتها إلى الحياة وهي بعمر التّاسعة والعشرين عامًا، يصبح عندها (ثبات في العمر)، يجعل من عمرها لا يتقدم أبداً مهما مرت الأيام والأعوام. بينما كانت هي خالدة ودائمة الشّباب، كان النّاس من حولها يشيخون، ويموتون.. الأحداث مشوّقة وصادمة. عاشت أدالين في أكثر من زمن ومع عدة أجيال، ومع ذلك ابتعدت عن مخالطة النّاس والارتباط بهم، خوفًا من أن يكتشف أمرها. كانت تعاني، خصوصًا بعد أن لاحقتها عدة جهات في البداية لاستغلال ما حدث لها. غيّرت اسمها مرات ومرات، كما غيّرت مكان إقامتها إلى أمكنة مختلفة، إذّاك دخلت في عزلة اختيارية عاشتها بعيدًا عن سائر البشر. إلى أن تقابل (آدالين) رجلًا استثنائيا، ومختلفًا يعيد جذوة شغفها بالحياة والرومانسية. لاحقًا تدخل المستشفى جراء حادث سير خطير، صدمة كهربائية أرجعت لها مسار الشّيخوخة الطّبيعي، علاوة على الاطمئنان، والرّاحة النّفسية، خصوصًا حينما تكتشف ظهور شعرة بيضاء بين شعر رأسها.

السّاعة السّابعة إلا ربع زوالًا، أحجمت اليوم عن الخروج مساء، جراء شدة القيظ وسخونة الطّقس، خاصة درجة الرّطوبة المرتفعة في الجوّ، وغير المحتملة مطلقًا. أقرأ الآن على جهاز الموبايل بأن وزارة الصحة تسجل اليوم الجمعة ٣٩٣ إصابة جديدة بفيروس كورونا، علاوة على ٣٤ وفاة جديدة. لست أدري إن سيفتح لنا نحن سكان هذا العالم المعتل،

المعطل والموحش في قادم الأيام، باب النجاة في أحد جدران هذا الوباء اللعين، والتي لا باب فيها، أم ستبقى دار لقمان على حالها؟ أتمنى أن يأتي الوقت الذي يغلق فيه باب الوباء نهائيًا، لا شيء أمامنا سوى الصّبر والانتظار، أو القلق والاضطراب!

56

٢٠٢١/٩/٤

أفقت في السّاعة الثّامنة إلا ربع صباحًا، تثاءبت وتمططت في الفراش. تكاسلت على النّهوض من السّرير. لاحقًا، أي بعد دقائق معدودات، غسلت وجهي وأطرافي، وقمت بكل طقوسي الصّباحية المعتادة؛ من فرش الأسنان، وحلق شعر الوجه، ووضع الملابس المستعملة في إناء الماء الممزوج بالغسول، وتحضير وجبة الفطور، والجلوس إلى الطّاولة البيضاء عند زاوية غرفة النوم لتناول فطوري، والاستغراق في تملي منظر المدينة المتثائبة من عل، وتشغيل التّلفاز على قناة وثائقية، وتصفح الإنترنت، وغيرها.

السّاعة التّاسعة والنّصف صباحًا، كانت الشّمس متوارية خلف الغيوم طيلة الصّبيحة، وأبواق السّيّارات بالأسفل لا تكاد تهدأ، جراء الزّحمة واكتظاظ السير، خصوصًا وأن ثلاث حافلات قادمة من مدن وولايات أخرى، تقل المصطفين، راكنة الآن بجنب الرّصيف المقابل للسور المحيط بالبناية، دومًا يركن سائقو تلك الحافلات والباصات هناك

بمقربة من المتاجر والمطاعم لاقتناء بعض المشتريات والمستلزمات، فالشّواطئ لا تبعد سوى بضع دقائق عن المكان. والجميع يسابقون الزّمن، انتهى الصّيف، وبدأ الموسم متأخرًا بسب الحجر وغلق الشّواطئ طيلة الأسابيع الماضية. لذا تجد الشّواطئ ممتلئة على آخرها تقريبًا، فحركة وصول أو مغادرة مواكب السّيّارات والحافلات التي تحمل ترقيم ولايات من مختلف مناطق الوطن، لا تتوقف أو تقل. لاحقًا، أرسلت عبر البريد الالكتروني إلى إدارة الكلية محضر الدخول من العطلة الصيفية التي التهمها الحجر والوباء والقيظ، والقلق، والذّعر.

السّاعة الواحدة زاولًا، أخرجت طبق حساء شربة الفريك، الذي سبق وأعدته أختي (قبل أيام). بعدما تناولت غدائي ارتشفت من فنجان القهوة مع الاستمتاع بالتحلية بعنقود من العنب، وقضم الكعك وقطعة شكولاتة، وفي الوقت عينه كنت أتصفح حسابي على الفايسبوك، الحشود غارقة في إبداء الرّأي والنّصح والإدلاء بالتّحليلات بخصوص تصفيات الفريق الوطني لكرة القدم للترشح لكأس العالم، وحول مدى صلاحية وجاهزية ملاعب كرة القدم في مدننا، وغيرها من التّفاصيل الأخرى المرتبطة بالمدرب الوطني واللاعبين والمباريات القادمة. لست أدري ما هو الموضوع الظرفي القادم الذي سيطرقونه، يفهمون في كلّ شيء، ويحشرون أنوفهم بكل الموضوعات، ليس لديهم ما يقومون به سوى الثّرثرة على وسائل التّواصل الاجتماعي! علماء في الطّب، والذّرة، والفلك، والفيزياء، والاقتصاد، والجيوبوليتيك، وعلم

النّفس، والاجتماع، وغيرها. يقيمون بالعالم الافتراضي، ولا يجيدون أي شيء آخر، قد يكون نافعًا، ومفيدًا في الواقع غير الافتراضي.

السّاعة الرّابعة زوالًا، بينما كنت أتصفح الفايسبوك مر علي إعلان ترويجي عن فيلم بعنوان (لما شُفتك..)، للمخرجة آن ماري جاسر، متاح للمشاهدة مجانا لغاية هذا الخميس ٩ سبتمبر. العديد من الهيئات والمؤسسات سمحت بمشاهدة الأفلام من دون مقابل خلال فترة الكوفيد_١٩. في الحقيقة استمتعت بمشاهدة أحداث الفيلم المشوقة، والتي دامت تقريبًا ساعتين؛ بطل الفيلم طارق، يبلغ من العمر أحد عشر عامًا، فضولي، ذكي، وبارع في سرعة التّفكير الذهني والرّياضيات، يعيش مع والدته بمخيم اللاجئين في الأردن. كان غير راضٍ تمامًا عن الظّروف القاهرة، وصعوبة التّكيف، وإكراهات الحياة بالمخيم. فضلًا عن رغبته الملحة في العودة إلى فلسطين، ولقاء أبيه الذي شتت شملهم الحرب هناك. يهرب طارق فجأة من المخيم، يبقى طيلة أيام متتالية بين التّيه والضّياع في طرق ودروب وعرة، إلى أن يعثر عليه بحالة مزرية في الخلاء فدائي فلسطيني غير بعيد عن مخيم التّدريب. يأخذه معهم، رويدًا رويدًا ينسجم مع مجموعة الثوار، ويعتاد الحياة هناك، يتلقى التّدريبات. إلى أن تلتحق به أمه هناك، ومع ذلك يرفض الرجوع معها. لأنّه كلّه أمل في الرّجوع إلى فلسطين رفقة الفدائيين. وفي النّهاية بفضل روحه الحرة وطبيعته الفضولية وفطنته أيضًا، سيعانق حلمه، ويدخل أرض فلسطين.

السّابعة والنّصف بعد الزّوال، خرجت من الشّقة. أرخى الليل سدوله، الشّوارع والمتاجر والمطاعم مكتظة بالزبائن، لا أثر تقريبًا لإجراءات التّباعد الصّحي، واحترام قواعد السّلامة، كأن الفيروس محض خيال، أو مجرد وهم لا وجود له في واقع حياة النّاس! صحيح أنّ عدد الإصابات بالعدوى المسجلة هذه الأيام جد متواضع مقارنة بما سبقها، ومع ذلك الهيئات الصّحية في البلد بدأت تحذر مجددًا (عبر الإعلام)، من إمكانية قدوم موجة رابعة للوباء. لم أستغرق وقتًا مطولًا في الخارج، بمجرّد أن اقتنيت بعض المشتريات من السوبر ماركت ثم المخبزة، عدت أدراجي إلى الشّقة، رغم أنّني لم أخرج مذ يومين.

كُتبت في عنّابة خلال الفترة (من ٧ جويلية/ يوليو إلى غاية ٤ سبتمبر/أيلول ٢٠٢١).

شكر خاص لجميع من ساهم في هذا الكتاب، وعلى رأسهم الدكتور محمّد بكاي، الأستاذ عميَّر بوداود، والدكتور عبد العزيز العباسي.

منشورات ويلـوز هـاوس

WILLOWS HOUSE